البديـع من الذاتية إلى النصية

" رؤية بلاغية في ضوء نظرية النظم وعلم النص"

إعداد

صالح أحمد عبد الوهاب

الأستاذ المساعد بقسم البلاغة والنقد

كلية البنات الأزهرية بالعاشر من رمضان

البديع من الذاتية إلى النصية" رؤية بلاغية في ضوء نظرية النظم وعلم النص"

صالح أحمد عبد الوهاب.

قسم البلاغة والنقد، كلية البنات الأزهرية بالعاشر من رمضان، جامعة الأزهر، مصر.

البريد الجامعي: saleh.abdelwahab@azhar.edu.eg

الملخص

إدراك العلاقات الداخلية والخارجية للنصِّ من أهم ما يميِّز البلاغيةَ النصية، **والمقصود بالعلاقات الخارجية للنص:** كل ما يُحيط بالنصِّ من ملابسات تتعلق بزمان النص، ومكانه، وعصره، وطبيعة المتكلم، والمخاطب، وإدراك العلاقة بينهما، وثقافة كل منهما، وعوامل تكوينها، **والمراد بالعلاقات الداخلية للنصِّ:** كل ما يتصل ببنية النصِّ؛ من حيث الناحية الصوتية، والصرفية، والنحوية، والدلالية، وهو ما تتجه عناية الدراسة إليه، وبالتحديد عنصري (السبك والحبك) أو ما يعرف بـ(التماسك النصي) وقد اقتضى ذلك الوقوف مع مفهوم النصِّ، ومعايير النصية، وأنظمة الربط اللفظي والدلالي عند علماء النص.

وتهدفُ الدراسةِ إلى بيان الدور الذي تقوم به مسائل البديع في إبراز أوجه التفاعل والترابط بين أجزاء النص، سواء ما كان منها متعلقٌ بالتماسك اللفظي، وهو ما يعرف بالسبك، أو ما تعلق منها بالانسجام الدلالي وهو ما يعرف بالحبك، وهو ما يعكس رؤية جديدة لوظيفة البديع، بعيدًا عن قضية التحسين التي شغلت أذهان العلماء قديمًا، ولا تكون تلك الوظيفة من خلال الاقتصار على بيان المحسن اللفظي والمعنوي، وإنَّما من خلال بيان ما أسهمتْ به مسائل البديع (اللفظية، والمعنوية) من تماسكٍ وترابطٍ واتساقٍ وانسجامٍ بين أجزاء العمل الأدبي.

وقد اقتضى ذلك المنهجَ التحليلي القائمَ على رصد ظاهرة الترابط في علم البديع، ثم حصر هذه المصطلحات البديعية، ثم تصنيفها، ثم تحليلها تحليلًا كاشفًا عن أسرارها وقيمتها البلاغية، وأثر ذلك في إحداث الترابط اللفظي، والانسجام الدلالي.

وكان من نتائج الدراسة: أنَّ جلَّ مسائل البديع تصلح أن تكون أنظمة ربط لفظي ودلالي، وأن عماد الدرس البديعي ليس في الوظيفة التحسينية الشكلية، وإنما يكمن في إدراك النشاط الكلي للنص، وإبراز أوجه التفاعل داخل العمل الأدبي.

الكلمات المفتاحية: البديع- التحسين- الوظيفة- التماسك- النص- النظم. رؤية- تراث.

Al-Badi' from Subjectivity to Textual "Reading in Light of Versification Theory and Text Science"

Saleh Ahmed Abd El Wahab.

Department of: Rhetoric and Criticism, Al-Azhar for Girls College, 10th of Ramadan, Al-Azhar University, Egypt.

E-mail: Saleh.AbdElwahab@azhar.edu.eg

Abstract:

Being aware of the internal and external relations of the text is one of the most important characteristics of textual rhetoric. The external relations of the text mean that: all the circumstances surrounding the text are related to the time, location, age, the nature of the speaker, the addressee, and the perception of the relationship between them, their respective culture, and the factors of their formation. The internal relations of the text mean: everything related to the structure of the text, in terms of phonetics, morphology, grammar, and semantics, which is what the attention of study tends to, specifically racial (casting and knitting) or what is known as (textual coherence). This necessitated standing with the concept of the text, the textual standards, and the verbal and semantic linking systems of the text scholars.

The study aims to clarify the role played by al-Badie's issues in highlighting the interactions and interconnections between parts of the text, whether they are related to verbal cohesion, which is known as casting, or what is related to semantic harmony, which is known as weaving, which reflects a new vision of the function

of al-Badie out of the issue of improvement that once occupied scientists' minds. That function is not limited to the clarification of verbal and semantic ornaments, but rather through the clarification of the contributions of al-Badie (verbal and moral) issues in terms of coherence, interdependence, consistency and harmony between the parts of the literary work.

This required an analytical approach based on monitoring the phenomenon of interdependence, restricting its innovative terminology, categorizing it, then analyzing it revealing its secrets and rhetorical value, and the effect of that on creating verbal correlation and semantic harmony.

One of the results of the study was that most of al-Badi's issues are suitable for verbal and semantic linking systems, and that the mainstay of al-Badi's lesson is not the formal improvement function, but rather the awareness of the overall activity of the text, and highlighting the interactions within the literary work.

Keywords: Al-Badi' - Optimization - Function - Coherence - Text - versification.

المقدمة

اللهم إنَّا نعوذ بك من أكنة القلوب، ووقر الآذان، ونبرأ إليك من غفلة العقل، وبلادة الحسِّ، سبحانك لا علم لنا إلَّا ما علَّمتنا، إنَّك أنت العليم الحكيم، وأصلي وأسلم على صفوة خلقك ومصطفاك، سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه وذريته وأمهات المؤمنين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أمَّا بعد...

فلعلَّ فيما نقله الزركشيُّ في عبارته " الْعُلُومُ ثَلَاثَةٌ: عِلْمٌ نَضِجَ، وَمَا احْتَرَقَ؛ وَهُوَ عِلْمُ الْأُصُولِ وَالنَّحْوِ، وَعِلْمٌ لَا نَضِجَ وَلَا احْتَرَقَ؛ وَهُوَ عِلْمُ الْبَيَانِ وَالتَّفْسِيرِ، وَعِلْمٌ نَضِجَ وَاحْتَرَقَ؛ وَهُوَ عِلْمُ الْفِقْهِ وَالْحَدِيثِ" [(١)] ما أغرى الباحثين بالسَّعي وراء عوامل نضج البلاغة وتطورها؛ وصولًا بالبلاغة العربية إلى واقعٍ مأمولٍ ومستقبلٍ منشود.

ولكنَّ السؤالَ الذي تنطلقُ منه الدراسةُ: هل البلاغةُ العربيةُ في حاجةٍ إلى تجديد؟ وما نوعُ هذا التجديد؟ أيكونُ بالزيادة في مادتها أم بالنقصان والحذف؟ أيكونُ من داخلها أم من خارجها؟ وهل الدعوة قاصرةٌ على إسهامات المحدثين، أم سبقتْها جهودُ المتقدمين، وما سببُ تعالي الأصوات المنادية بالتجديد في وقتنا الحاضر؟

لا شكَّ أنَّها أسئلةٌ مشروعةٌ، وافتراضاتٌ من الأجدر أنْ تأخذَ حقَّها من المناقشة والدَّرس، ومن هنا كانتْ تلك المحاولةُ الطامحةُ إلى ربط علم البديع بعلم النَّص؛ من خلال الانتقال به من دائرة التحسين إلى دائرة التماسك النَّصي؛ إذ لا خيرَ في عقل لم يقم بمراجعة شاملة لآليات العلم ومفاهيمه وتصوراته، خاصةً علم البلاغة الذي يتميزُ بالرحابة والاتساع حتى قال عنه حازمٌ القرطاجنيّ:" كيف يَظُنُّ إنسانٌ أنَّ

---

(١) المنثور في القواعد الفقهية المؤلف: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: ٧٩٤هـ) الناشر: وزارة الأوقاف الكويتية الطبعة: الثانية، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م ج١ ص٧٢.

صناعةَ البلاغةِ يتأتَّى تحصيلُها في الزَّمن القريب، وهي البحر الذي لم يَصِل أحدٌ إلى نهايته مع استنفاد الأعمار؟![1]

وليس من شكٍّ-عندي- أنَّ البلاغةَ العربيةَ في عصرها المتأخر تمرُّ بواقعٍ مأزوم، سواءٌ أكان سببُه استغناءَ كل فريق بما لديه من رؤية نابعة من فكره وميوله واتجاهاته، تختلف- تلك الرؤيةُ- مع رؤية الفريق الآخر، أم كان سببُه ظهورَ بعض العلوم التي زاحمتْ البلاغةَ العربيةَ كالأسلوبيَّة والتداوليَّة وعلم النَّص التي رأى فيها بعضُ المهتمين بتحليل الخطاب وإنتاجه بديلًا عن البلاغة العربية.

وإذا كانتْ العربُ تقولُ: كثرةُ المؤتفكات (الرياح) تثيرُ الأرضَ، فكذا الحالُ في المعرفة ومناقشة كلام علمائنا الكرام تثيرُ العقولَ وتنبه الغافلَ؛ حتى يصلَ حاضرَه بماضيه، وينسجَ روئ جديدة بخيوط قديمة، دون الاقتصار على كلام معاد أو التعصب للقديم على حساب الجديد، أو الانخداع ببهرجة الجديد والتهوين من شأن القديم؛ فكما أنَّ الحبَ يُعمي عن المساوئ، فكذلك البغضُ- أيضًا- يُعمي عن المحاسن ويصم، وإنَّما واجبنا أنْ نملأ فراغَ زماننا ونشغلَ مساحةَ لم تشغلْها أقلامُ علمائنا؛ فنقفَ بذلك على ما ينبغي الوقوفُ عليه من كلامهم فهمًا وإدراكًا وتذوقًا.

وقد أحببت بهذه المقدمة أنْ أقدِّمَ لتلك الدراسة التي تُعالجُ موضوعًا شغلَ حضورًا ملحوظًا في بيئة تراثية وأخرى حداثية، وهي أزمةُ التجديد بين أنصار القديم وأنصار الحديث؛ فبينما يرى بعضُ أنصار القديم أنَّ أي تجديد لابدَّ أنْ يُولدَ من رحم التراث، فآثروا العودةَ إلى الماضي وفهمه والنسج على منواله، يرى بعضُ أنصار الحداثة أنَّه قد آن الأوان أنْ نُهيلَ الترابَ على هذا التراث ونغيبَه بعدما أثبتَ عجزَه عن مواكبة منجزات حضارة العصر- على حد زعمهم-.

---

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء المؤلف: حازم بن محمد بن حسن، ابن حازم القرطاجني (المتوفى: ٦٨٤هـ) بدون تحقيق- ص٢٧.

غيرَ أنَّ الدراسةَ لا تؤمن بماضٍ إلى حدِّ القداسة، ولا تعترف بحداثةٍ تقوم على الانقطاع المعرفي بينها وبين الماضي، وإنَّما الحداثة التي أؤمن بها هي تلك الحداثةُ التي تنطلق من إشارات السابقين وتُضيف لبنةً إلى ذلك البناء المعرفيِّ الشامخ، وتسعى لهدم الجذورِ المتوهمةِ بين الناشئة وتراثها... أمَّا الحداثةُ المُتَّسِمَةُ بروح الغموض والاستعلاء، وفرض القطيعةِ بينها وبين الماضي، فهي ما أرفضه، ويأباه كل عاقل.

وقد اخترتُ أنْ تكونَ تلك الدراسةُ تحت عنوانِ: البديعُ من الذاتيَّةِ إلى النصيَّة " رؤيةٌ بلاغيةٌ في ضوءِ نظريةِ النظمِ وعلمِ النص" بما يعني أنَّ عواملَ التجديدِ والنهوضِ ليس من الضروري أنْ تكونَ متلازمةً مع كلِّ حديثٍ وافدٍ، فقد يكونُ التجديدُ من فهم القديمِ ومحاورته، واستخلاصِ معارفه التي نبني عليها، وأدواته التي يكون بها البناء.

ولعلَّ عُنوانَ الدراسة حين يُوضع في سياقة الصحيح يصبحُ دالًّا بوضوح على المقصودِ منه، وهو الوصولُ إلى إضافةِ محاولةٍ جديدةٍ للنهوضِ بالبلاغةِ العربيةِ من منظورٍ تراثي، وتتمثل تلك المحاولة في المسارين الآتيين:

المسارُ الأوَّلُ: الانتقالُ بالبديعِ من التحسين إلى التماسك النصيِّ.

المسارُ الثاني: تأسيسُ معجمٍ لمصطلحاتِ البديعِ النصيَّة.

منهجُ البحثِ وخطتُه:

وقد اقتضتْ طبيعةُ البحثِ المنهجَ الوصفي التحليلي المعنيَّ برصدِ ظاهرةِ التماسكِ النصِّي في علم البديع، ثم حصرِها من مظانِها، ثم تصنيفِها، ثم تحليلِها تحليلًا كاشفًا عن قيمتِها البلاغيَّةِ وأثرِها في التماسك النصِّي، كنظامٍ من أنظمةِ الربطِ وليس باعتبارها محسنًا لفظيًا أو معنويًا، كما اقتضتْ طبيعةُ الموضوعِ -أيضا- أنْ يكونَ

في مقدمةٍ وتمهيدٍ وفصلين وخاتمةٍ وقائمةٍ بالمراجع والفهارس، **أمَّا المقدمةُ:** فهي لأهميةِ الموضوع، والدَّافع إليه، والمنهج الذي سِرتُ عليه، وخطةِ البحث.

وأمَّا التمهيد: وتحدثت فيه عن مفهومُ النصِّ ومعاييرُ النصيَّةِ، وعناصرُ التماسكِ النصيِّ عند المحدثين.

وأمَّا الفصلُ الأول: فقد تحدثتُ فيه عن البلاغةِ العربيةِ وعلاقتِها بالنصِّ، وجاء ذلك في مبحثين:

المبحثُ الأوَّلُ: البلاغةُ العربيةُ والتماسكُ النصيِّ.

المبحث الثاني: البلاغةُ العربيةُ ومعيارُ المزيَّةِ والحُسنِ.

وأمَّا الفصلُ الثاني: فجاء بعنوان: البديعُ من الوظيفةِ التحسينيَّةِ إلى النصيَّةِ، واشتمل على مبحثين:

المبحثُ الأوَّلُ: وظيفةُ البديعِ النصيَّةِ.

المبحثُ الثاني: معجمُ المصطلحاتِ البديعيَّةِ النصيَّةِ.

وأمَّا الخاتمةُ: فقد جاءتْ في أعقابِ تلك الفصولِ موضحةً أهمَ النتائج التي توصلتْ إليها الدراسةُ.

وبعد...

فإن وفقت في تقديم قراءة جديدة تربط علم البديع بالبلاغة النصية، وتسهم في إنشاء معجم للمصطلحات البديعية النصية، فذلك بحول الله وتوفيقه، وإن لم أوفق فحسبي أني لم أدخر وسعا، ويكفي شرف السعي والمحاولة عملا بقوله تعالى: ﴿**وأن ليس للإنسان إلا ما سعى(٣٩) وأن سعيه سوف يرى**﴾. [النجم ٣٩ - ٤٠]والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

التمهيد

المبحث الأوَّل: مفهومُ النصِّ ومعاييرُ النَّصيّة.

المبحث الثاني: التماسكُ النصيِّ عند المحدثين.

المبحثُ الأوَّل: مفهومُ النصِّ ومعاييرُ النصيَّةِ. (١)

من المعلوم أنَّ للنصوصِ دورًا بارزًا في توجيه النشاط البشري، وتغيير السلوك الإنساني؛ فما تحمله في مضامينها كفيلٌ بترسيخ بعض المفاهيم والقيم والميول والاتجاهات والمعتقدات والثقافات، فضلًا عما تقوم به من تأثير واضح في الأحداث التي نتلقّاها أو نُصدرها، فبها نتواصلُ ومن خلالها نتكلمُ ونفكرُ(٢) ولذا كان في الانتقال بعلم البديع من دائر التحسين إلى دائر الترابط النصيِّ، ومن ضيقِ الدراسة الجزئية(المثال والشاهد) إلى رحابِ النصِّ نهوضٌ بالبلاغة العربية، ووضعها في مكانها الأليق والأنسب الذي صاحب ميلادها ونشأتها، بداية من نشأتها في حضن القرآن، ومرورًا بالنصوص النبوية، ونصوص أساطينِ العرب شعرًا ونثرًا، فهي – منذ النشأة– وهي إحدى مكونات النصِّ التي تسهم في بنائه وإنتاجه وتشكيله، كما أنَّها وسيلةٌ من وسائل تحليله والكشف عن عناصر تماسكه وترابطه.

وأهمُّ ما يميزُ الدراسةَ النصيَّةَ أنَّها تهتمُّ بإدراكِ العلاقاتِ الداخليةِ والخارجيةِ للنصِّ، فإدراكُ العلاقاتِ وملابساتِ العملِ الأدبيِ هي جوهرُ الدراسةِ النصيَّةِ، والمقصودُ بالعلاقاتِ الخارجيَّةِ للنصِّ: هو كلُّ ما يحيطُ بالنصِّ من ملابسات تتعلق بزمان النص ومكانه، وعصره، وطبيعة المتكلم، والمخاطب، وإدراك العلاقة بينهما، وثقافة

---

(١) لسانيات النص علم معرفي جديد، تكون في النصف الثاني من ستينات القرن الماضي، يهتم بدراسة النص باعتباره الوحدة اللغوية الكبرى، وذلك بدراسة جوانب عدة أهمها: الترابط أو التماسك ووسائله وأنواعه والإحالة وأنواعها، والسياق النصي، ودور المشاركين في النص (المرسل والمتلقي) ينظر في ذلك الاتساق النصي في التراث العربي" تأليف أ. نعيمة سعدية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة محمد خضير– بسكرة– الجزائر– مجلة كلية الآداب – العدد الخامس– ٢٠٠٩.

(٢) عناصر التماسك النصي بين نظرية النظم وعلم النص للباحث– مجلة كلية البنات الأزهرية بالعاشر من رمضان– العدد الأول– ٢٠١٦. ص٩٣.

كلٍ منهما وعوامل تكوينها، وغير ذلك مما له علاقةٌ خارجيةٌ (غير لغوية) والمرادُ بالعلاقاتِ الداخليةِ للنصِّ: كلُّ ما يتصلُ ببنية النصِّ؛ من حيث الناحيةِ الصوتيةِ والصرفيةِ والنحويةِ والدلاليةِ، وهو ما تتجه عنايةُ الدراسةِ إليه، وبالتحديدِ عنصري السبكِ والحبكِ أو ما يعرف بـ(التماسك النصي)

مفهومُ النصِّ في المعاجمِ العربيَّةِ والغربيَّة:

بنظرةٍ متأنيةٍ في المعاجم العربيةِ نلحظُ أنَّ مادةَ(نصَّ) تدورُ حول معانٍ لا صلة لها بمفهوم " النصِّ" بمعناه المعاصر(الخطاب، أو العمل الأدبي) فمن معانيها: الرفعُ، والوضوحُ والظهورُ، والتحريكُ، والاستقصاءُ، وبلوغُ أقصى الشيء ومنتهاه، وضمُّ الشيء إلى الشيء[1]

وكلُّها معانٍ تدورُ حولَ الحدثِ والفعلِ كما يقول الدكتور/ نعمان بوقرة، أمَّا المعنى الاسمي الذي يدور حول النسج، والترابط، والاتساق، والانسجام بين أجزاء الخطاب، فلا نكاد نرى له أثرًا في المعاجم العربية، بخلاف النصِّ عند الغرب؛ حيث توافقتْ الدلالةُ اللغويةُ مع الدلالةِ الاصطلاحيةِ، وبالتحديد في التعريف المشهور لدى (دي بوجراند) فإنَّ معاني الإحكام، والتماسك، والترابط واضحة فيه، وظاهرة في عنصرية (السبك، والحبك)

فالنصُّ في المعجم الفرنسي" مأخوذٌ من مادة (textus) اللاتينية التي تعني النسيج، ...كما تعني منذ العصر الإمبراطوري ترابط حكايةٍ أو نصٍّ...وهكذا نرى أنَّ كلمة"نصّ" في التعريف الفرنسي أقرب في الدلالة على مفهوم التماسك النصيّ؛ فهي تدلُّ على الترابط بين أجزاء الحكاية، " كما أنَّ كلمة النسيج– المقابل المعجمي لمادة

(١) ينظر لسان العرب– تأليف: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ) الناشر: دار صادر بيروت الطبعة: الثالثة ١٤١٤ هـ– مادة (ن– ص– ص)

نصٌ- في أبسط معانيها تدل على الانسجام، والتماسك، والترابط، والتناسق بين خيوط المنسوج؛ ذلك المنسوج الذي يُشكِّل قيمة فنية ترتفع جمالياتها كلما ازداد تماسك خيوطها. (١)

والذي نلاحظه في المعنى اللغوي لمادة(texte) أنّها تدلُّ دلالةً صريحةً على التماسك والترابط والتلاحم بين أجزاء النصّ، وذلك من خلال معنى كلمة"النسيج" التي تشير إلى الانسجام، والتضام، والتماسك بين مكونات الشيء المنسوج ماديًا، كما تشير معنويًا –أيضًا– إلى علاقات الترابطِ والتماسك، من خلال حبك أجزاء الحكاية.

وبالتأمل في المعنى المعجمي في المعاجم الغربية والمعنى الاصطلاحي في الدراسات المعاصرة نجدُ مفهومَ النصِّ في المعجم الغربي متشابكًا ومترابطًا مع المفهوم الاصطلاحي؛ لما يقوم به صاحبُ النصِّ من عملية الربط والاتساق بين الألفاظ والجمل والفقرات على المستويين: اللفظي والدلالي. فالنصُّ كما يقول الأزهر الزناد:" نسيجٌ من الكلماتِ يترابطُ بعضُها ببعض" (٢)

معايير النصية:

أشار إليها (دي بوجراند) أثناء حديثه عن تعريف النصِّ؛ حيث عرفه بقوله:" حدثٌ تواصلي، يلزَم من كونه نصًّا أنْ تتوافر له سبعة معايير مجتمعة، وهذه المعايير هي:

١- التماسك (الاتساق، أو السبك، أو التضام أو الربط) (cohesion)
٢- الانسجام، (الحبك، أو الالتحام، أو التقارن) (coherence)
٣- القصد (Intentionality)

---

(١) ينظر " نحو لسانيات نصية عربية" للدكتور/ رشيد عمران – شبكة التواصل الاجتماعي- تاريخ الدخول ٢٠١٦/٨/٢٦، بتصرف كبير.

(٢) انسيج النص- لأزهر الزناد- المركز الثقافي العربي، بيروت،١٩٩٣م ص :١٢

٤- المقامية، أو الموقفية (Situationality)

٥- الإعلامية (Informativity)

٦- المقبولية (Acceptability)

٧- التناص (Inter****uality) وهذه المعايير السبعة ، لا بدَّ من توافرها مجتمعةً في أيِّ نصٍّ؛ كي يتسم بالنصيَّة، وإذا فُقِد أحدُها في النصِّ خرج عن حدود النصيَّة، الذي استقرَّ عليه علماء النصِّ مؤخراً. (١)

****

(١) ينظر " نحو لسانيات نصية عربية" للدكتور/ رشيد عمران – شبكة التواصل الاجتماعي- تاريخ الدخول ٢٠١٦/٨/٢٦، بتصرف كبير.

المبحث الثاني: التماسك النصي عند المحدثين.

إذا كان النصُّ بمفهومه الحديث هو: حدثٌ تواصليٌّ بين متكلمٍ ومخاطبٍ، يلزمُ لكونه نصًا سبعةُ معايير، أشهرها السبك والحبك، أو ما يطلق عليهما بـــ" التماسك النصي" ومن المنهجي أن نذكر تعريفًا أوليًّا لمفهوم (التماسك النصي)

مفهومُ التماسكِ في المعاجمِ العربيةِ والغربيةِ:

من أهمِّ الظواهرِ اللغويةِ- التي شغلتْ أذهانَ العلمـــاءِ قـــديمًا وحـــديثًا - ظـــاهرة (التماسك النصيّ) فقد جعلها البلاغيون الأوائل – وإن لم يسموها باسمها-وجهًا من وجوه إعجاز القرآن الكريم، حتى عدوا القرآن الكريم نصًا واحدًا؛ فهو لفظ حامـــل، ومعنى به قائم، ورباط بينهما ناظم، على حد تعبير الخطابي[1]، بينما نظـــر النقـــاد المحدثون إلى (التماسك النصيّ) على أنه من أسس النقد الفني للعمل الأدبي، فـــضلًا عن ذلك فـــ (التماسك النصيّ) أحدُ المعايير السبعة التي ذكرها (دي بوجراند).

وهذا المعنى – من الترابط والإحكام- هو ما دارت حوله الدلالـــة المعجميـــة فـــي العربية، فالتماسك في اللغة: يدور حول معانٍ عدة منها: الشدة، والصلابة، والترابط، والحبس[2] وهذه المعاني إنْ وجدت في الألفاظ أدَّتْ إلى ســـبكِها، وإنْ وجـــدت فـــي المعاني أدَّتْ إلى حبكِها وإحكامها، ولذا يعدُّ(السبك، والحبك) من أهم معايير الـــنصِّ التي أجمع عليها البلاغيون والنصييون، فما المراد بكل منها؟

---

(١) ينظر بيان إعجاز القرآن مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القـــرآن -سلـــسلة: ذخـــائر العرب (١٦) المؤلف: أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعـــروف بالخطابي (المتوفى: ٣٨٨هـــ) المحقق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام الناشـــر: دار المعارف بمصر الطبعة: الثالثة، ١٩٧٦م ص٢٧.

(٢) تارا فرهاد شاكر- كلية اللغات / جامعة صلاح الدين/أربيل – مجلة جامعة بابـــل- المجلـــد ٢٢- العدد ٦- ٢٠١٤. شبكة التواصل – تاريخ الدخول- ٢٠١٦/٨/١٧.

مفهوم السبك:

يلعب " السبك" دورًا بارزًا في ربط (الألفاظ) بعضها ببعض، بحيث تصبح كيانًا واحدًا متماسكًا ، كما هو مفاد من الدلالة المعجمية التي تدور حول الترابط والتلاحم(١)

ولا يختلف هذا المعنى عن مفهوم السبك في الدراسات النصيَّة المعاصرة ، فالسبك في علم النص يُقصد به: الربطُ اللفظي" فالنص عبارة عن وحدة تترابط أجزاؤها عن طريق أدوات ربط صريحة، فالسبك إذن يتعلق بالبنية الشكلية أو السطحية للنصّ، ويتم السبك عن طريق أدوات تعمل على تتابع الكلمات تتابعًا صحيحًا من الوجهة النحوية والمعجمية، وبهذا فالمعنى المعجمي للفظ السبك يتقارب مع المعنى الذي اصطلح عليه في علم اللغة الحديث؛إذ يعني في المعاجم ربط الأجزاء المتعددة، والعمل على جعلها شيئا واحدًا، وهو نفس ما يطلق عليه في علم اللغة الحديث؛ إذ يعني ربط الجمل المتعددة حتى تكون نصا"(٢)

مفهوم " الحبك"

تدور مادة " حبك" في المعاجم العربية حول الإحكام والإتقان(٣)

---

(١) ينظر "لسان العرب مادة(س- بك)

(٢) التماسك النصي بين التراث والغرب- تارا فرهاد شاكر- كلية اللغات / جامعة صلاح الدين/أربيل – مجلة جامعة بابل- المجلد ٢٢- العدد ٦- ٢٠١٤. شبكة التواصل – تاريخ الدخول- ٢٠١٦/٨/١٧، وتنظر تلك المعايير النصية أيضا" أصول المعايير النصية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب" رسالة ماجستير للباحث: عبد الخالق فرحان شاهين- بقسم اللغة العربية--جامعة الكوفة- العراق- ٢٠١٢.

(٣) ينظر "لسان العرب مادة(ح- ب- ك)

وبالتأمل في تلك المعاني الواردة في معاجم العربية نجدُ أنَّه لا تعارض بينها وبين المعنى المتفق عليه عند علماء النصّ؛ حيث يقصد بالحبك عندهم الانسجام والاتساق الدلالي، ويكون ذلك بتنامي العلاقات الدلالية في النص.

نخلص من هذا ... إلى أنَّ مصطلح التماسك النصي(السبك، والحبك) هو مصطلح يجمع بين الروابط اللفظية، وهو ما يعرف في علم النص بـ" السبك"، والروابط الدلالية، وهو ما يعرف بـ" الحبك".

لكنَّ الشيء اللافت للنظر أنَّ الدراسةَ النصيَّةَ عند المعاصرين- على الرُّغم من عنايتها بعناصر التماسك النصي(اللفظي، والدلالي)- فاتها الحديثُ عن البديع وأثره في إحداث الترابطِ والتماسكِ اللفظي على مستوى الألفاظ، وكذا إحداث الانسجام والاتساق الدلالي على مستوى المعاني، باستثناء بعض المحاولات الفردية على نحو ما قام به الدكتور سعد مصلوح[١]، والدكتور جميل عبد المجيد[٢]

ولا عجب في هذا...فكما فات علماءُ النصِّ أنْ يتنبهوا لدور البديع في الترابط والتماسك، فات كذلك البلاغيين الأوائل الحديثُ عن أنظمة الربط الأخرى غير الفصل والوصل في العمل الأدبي، ومن ثمَّ لا نستغربُ غيابَ توظيفِ مسائلِ البديعِ عند البلاغيين والنصيين- على الرُّغم من أهميتها النصيَّة - كأنظمةِ ربطٍ لفظي، ودلالي، كما لا نستغربُ تقسيمَه إلى لفطيٍّ، ومعنويٍّ، ممَّا عوَّق دورَ علمِ البديع عن القيام بدوره المنوط منه، وممَّا جعله في مرمى السهام من البلاغيين المتأخرين.

---

(١) ينظر " في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية آفاق جديدة- دكتور/ سعد عبد العزيز مصلوح- مجلس النشر العلمي- جامعة الكويت- ٢٠٠٣.

(٢) ينظر " البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية" دكتور: جميل عبد المجيد- مطابع الهيئة العامة المصرية للكتاب- مصر.

وبعد هذا التنظير- الذي اقتضته طبيعةُ البحثِ- لبعض المصطلحاتِ النصيَّة التي لا غنى للدراسة عنها يجدرُ بنا الحديثُ عن البلاغةِ العربيَّةِ وعلاقتِها بالنصِّ، وهو ما وجهتْ الدراسةُ عنايتَها إليه، باحثةًعن وظيفية البديع النصيَّة، بعيدًا عن النظرة الجزئيةِ المتمثلةِ في المصطلح والمثال التي عنيتْ بها كتبُ الشروح والتلخيصات.

****

الفصلُ الأول: البلاغةُ وعلاقتُها بالنصِّ:

المبحثُ الأوَّلُ: البلاغةُ والتماسكُ النصيِّ.
المبحثُ الثاني: البلاغةُ العربيةُ ومعيارُ المزيَّة والحُسن.

المبحثُ الأولُ: البلاغةُ والتماسكُ النصيّ.

مصطلح "التماسك النصي" بما يعنيه من " تماسك لفظيٍّ، ويسمى (السبك)، وتماسك دلاليٍّ، ويسمى (الحبك) من المصطلحات قريبة الصلة بالبلاغة العربية عامةً، وعلم البديع خاصةً، بل إنْ شئتَ فقل: إنَّ جلَّ مسائلِ البديع هي أنظمةُ ربطٍ وتماسك وإحكام، سواءٌ ما تعلّق منها بالمحسنات اللفظية أو المعنويةِ على حد تقسيم البلاغيين المتأخرين.

وقد جرتْ عادةُ البلاغيين المتأخرين إلى تقسيم (البديع) إلى محسنات لفظيَّة ومعنويَّة، وفي هذا التقسيم ما يتناقضُ مع المعالجةِ النصيَّة القائمةِ على التماسك والترابطِ بين الألفاظ والمعاني، فهما وجهان لعملة واحدة، ولعلَّ هذا هو السبب الرئيس الذي حصر (علم البديع) إلى وقتنا هذا في المعالجة الجزئية القائمةِ على الشاهد والمثال، وسيطرتْ الرؤية التحسينية القائمة على الفصل بين مكوني العلامة اللغوية (الدال والمدلول) وهو ما يعيدُ إلى الأذهان التفرقة بين اللفظ والمعنى، التي رفضها أهلُ السنة؛ تحقيقًا للإعجاز، ولذا يرون ضرورة التوافق بين اللفظ والمعنى بما يضمن للنصِّ القرآني إعجازَه وقدَمَه، وهو ما دفعَ ابنَ قتيبة الدينوري السنيَّ إلى التصريحِ في مقدمةِ كتابه " الشعر والشعراء" بالمساواة بين اللفظ والمعنى وعلى هذا الأساس قسَّم الشعرَ إلى أربعة أضرب: ضربٌ حَسُن لفظُه ومعناه، وضربٌ حَسُن لفظُه دون معناه، وضربٌ حَسُن معناه دون لفظه، وضربٌ ساء وقبح في لفظه ومعناه [١].

كما لا يخفى- أيضًا- أنَّ قوام نظرية النظم على الترابط والتماسك بين الألفاظ والمعاني، وأنَّه لا سبيل إلى استنباط وجوه إعجاز القرآن البيانية إلَّا من خلال النظم

(١) الشعر والشعراء المؤلف: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ) الناشر: دار الحديث، القاهرة عام النشر: ١٤٢٣ هـ. ٦٩/١.

الذي كان هو مناط التحدي، وبه تكون الفضيلةُ لكلامٍ على كلامٍ، ولذا أطال عبد القاهر الكلام في الرد على الذين حصروا أمرَ السجعِ والتجنيسِ في التحسين اللفظي فقط " لأنَّ الألفاظَ لا تُرادُ لأنفسها، وإنما تُرادُ لتُجعَلَ أدلَّةً على المعاني... ومن ههنا رأيتُ العلماءَ يذمُّون مَنْ يحملُه تطلُّبُ السَّجعِ والتجنيس على أن يضيم لها المعنى، ويدخل الخلل عليه من أجلها، وعلى أنْ يتعسَّف في الاستعارةِ بسَبَبهما، ويَرْكَبَ الوعورةَ، ويسلُكُ المسالكَ المجهولةَ، كالذي صنَعه أبو تمام في قوله:

ذهبَتْ بمَذْهَبِه السماحةُ والْتَوَتْ ... فيه الظنونُ أمَذهَبٌ أم مُذْهَبُ

ويَصْنعه المتكلفونَ في الأسجاعِ. وذلك أنه لا يُتصوَّر أن يَجبَ بهما، ومِنْ حيثُ هما، فضلٌ، ويقعَ بهما مع الخُلُوِّ منَ المعنى اعتدادٌ. وإذا نظرتَ إلى تجنيسِ أبي تمام: "أمَذهَبٌ أم مُذهَبُ" فاستضعفتَه، وإلى تجنيس القائل:

حتى نجا من خوفه وما نجا

وقولِ المحدث:

ناظراها فيما جنى ناظراه ... أو دعاني أمت بما أودعاني

فاستحسنْتَه، لم تَشُكَّ بحالٍ أنَّ ذلك لم يَكُنْ لأمرٍ يرجعُ إلى اللفظ، ولكنْ لأنَّكَ رأيت الفائدة ضعفت في الأول، وقويَتْ في الثاني. وذلك أنكَ رأيتَ أبا تمام لم يَزِدْكَ بمذهب ومذهب، على أنْ أسْمَعَكَ حُروفاً مكرَّرة لا تجدُ لها فائدة إن وُجدتْ، إلاّ متكلَّفة متمحَّلة، ورأيتَ الآخرَ قد أعادَ عليك اللفظةَ كأنَّه يَخدَعُكَ عَنِ الفائدة وقد أعطاها، ويُوهِمُكَ أنه لم يَزِدْكَ وقد أحْسَنَ الزيادةَ ووفَّاها. ولهذه النكتةِ كانَ التجنيسُ، وخصوصاً المستوفَى منه، مثلَ "نجا" و "نجا"، من حلى الشعر. والقولُ فيما يَحْسنُ وفيما لا يَحْسُنُ من التجنيسِ والسجعِ يَطولُ، ولم يكنْ غرضُنا من ذكْرِهما شَرْحَ

أمرهما، ولكنْ توكيدَ ما انتهى بنا القولُ إليه من استحالة أن يكونَ الإعجازُ في مجرَّد السهولة وسلامة الألفاظ مما يثقُل على السان"(١)

ومن ثم سعتْ البلاغةُ العربيةُ لدى المتقدمين إلى ضرورة التوافق والاتساق والانسجام بين اللفظ والمعنى، دون التفرقة بينهما؛ تحقيقًا للتماسك النصيِّ، ولا يكون التماسكُ والترابطُ بين الألفاظ والمعاني إلَّا بوجود علاقات ووشائجَ ولُحمة تربطُ بين البنية السطحيَّة للنص(الألفاظ) والبنية العميقة(المعاني) ومن شأن هذا كله أن يُسهم في إحداث نوعٍ من التماسك اللفظي والدلالي، وهذا ما أراده علماؤنا الكرام من الرعيل الأول وهم يدرسون البديع.

وهو ما قرره عبد القاهر - أيضًا- وهو يعالج قضية اللفظ والمعنى، نافيًا أن تكون هناك مزيَّةٌ تعودُ على اللفظ بمفرده أو المعنى بمفرده، يقول عبد القاهر: " ومنَ المعلوم أنْ لا معنى لهذه العبارات وسائر ما يجْري مَجراها(٢)، مما يُفرد فيه اللفظُ بالنعت والصفة، وينسبُ فيه الفضلُ والمزيةُ إليه دونَ المعنى... وهَل يقع في وَهْم وإنْ جُهد، أن تتفاضل الكلمتان المفردتان، منْ غير أن يُنظر إلى مكانٍ تقعان فيه من التأليف والنظم، بأكثرَ من أن تكونَ هذه مألوفةً مستعملةً، وتلك غريبةً وحشية، أو أن تكونَ حروفُ هذه أخفَّ، وامتزاجُها أحسنَ، ومما يكدُّ اللسانَ أبعدَ؟وهل تَجد أحدًا يقولُ: "هذه اللفظةُ فصيحةٌ"، إلاَّ وهو يعتبرُ مكانَها منَ النظم، وحسنَ مُلائمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لخواتها؟ وهل قالوا: "لفظةٌ متمكّنةٌ، ومقبولةٌ"، وفي خلافه: "قلقة، ونابية، ومستكرهة"، إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن

(١) تأويل مشكل القرآن المؤلف: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ) المحقق: إبراهيم شمس الدين الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان–ص٥٨.

(٢) يقصد عبارات(البلاغة- الفصاحة- البيان- البراعة) وغير ذلك مما يفيد أفضلية بعض القائلين على بعض.

الاتفاق بينَ هذه وتلك من جهة معناهما، وبالقلق والنبو عن سوء التلاؤم، وأن الأولى لم تلق بالثانية في معناها، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفقًا للتالية في مؤادها؟ [1]

ويقول أيضًا:" أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملوك بالإعجاز روعة، وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها تعلقًا باللفظ من حيث هو صوت مسموع وحروف تتوالى في النطق؟ أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب؟ فقد اتضح إذن اتضاحا لا يدع للشك مجالا، أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الفضيلة وخلاقها، في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها٤، وما أشبه ذلك، مما لا تعلق له بصريح اللفظ"[2].

إذا فلا مزية – عند عبد القاهر – للألفاظ بمفردها إلَّا لما بين معانيها من اتساق عجيب، وملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، وما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ، وهو كلام لم يستثمر ولم يأخذ حقه من الدراسة التطبيقية للنص، فالبلاغة العربية وإن لم تنص على أنظمة الربط صراحة، باستثناء مبحثي(الفصل والوصل) ففي الوقت ذاته لم تهمل التماسك والترابط في أي نتاج أدبي، غير أن حديث البلاغيين عن النظرة الكلية لم يستثمر، وهذه النظرة الكلية للنص تمثلها نظرية النظم القائمة على التعانق والتعلق بين أجزاء العمل الأدبي، وعبارات النسج والوشي والبناء والصياغة عند عبد القاهر كلها مفاهيم نصية، بالإضافة إلى حديثه

---

(١) دلائل الإعجاز في علم المعاني– المؤلف: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى: ٤٧١هـ) المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة دار المدني بجدة الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ ١٩٩٢م– ص٤٣، ٤٤.

(٢) الدلائل ص ٤٤–٤٦. بتصرف كبير.

عن أنظمة الربط البلاغية كأسلوب الشرط، والتقديم والتأخير، والإحالة، والحــذف، وأدوات التشبيه، والاقتران.

وليس أدل على اهتمام البلاغة العربية بالتماسك والترابط بين أجزاء الكلام- حتــى يصبح كلًا متماسكًا يسلم بعضُها إلى بعضٍ، ويجعل بعضُها بسببٍ من بعض – مــن كلام عبد القاهر الجرجاني حول التعلق والنظم والترتيب الخاص والنسج والإحكــام والوشي والصياغة ، وذلك في نصوص عديدة نحتاج أن نوردها قبل الحــديث عــن مسائل البديع ودورها في التماسك أيضا: يقول عبد القاهر:" واعلمْ أنَّ مما هو أصــلٌ في أن يدِقَّ النظرُ، ويَغْمُضَ المَسْلَكُ، في توخِّي المعاني التي عرفت: أنْ تتَّحدَ أجزاءُ الكلام ويَدخلَ بعضُها في بعضٍ، ويشتدَّ ارتباطُ ثانٍ منها بأول، وأن تحتاج في الجملة إلى أن تضعَها في النفس وضعًا واحدًا، وأن يكونَ حالُك فيها حــالَ البــاني يَــضعُ بيمينه ههنا في حالِ ما يَضَعُ بيسارِه هناك. نعم، وفي حالِ ما يُبْــصر مكــانَ ثالــثٍ ورابعٍ يَضعُهما بعدَ الأولَين. وليس لما شأنُه أن يجيءَ علــى هــذا الوصــف حَــدٌّ يَحْصرُه، وقانونٌ يُحيطُ به، فإنه يجيءُ على وجوه شتى، وأنحاءَ مختلفــة....وإذْ قــد عرفت هذا النمطَ من الكلام، وهو ما تتَّحدُ أجزاؤه حتى يُوضَعَ وَضْعاً واحداً، فــاعلمْ أنه النمطُ العالي والبابُ الأعظم، والذي لا ترى سلطانَ المزيةِ يعظُــم فــي شــيءٍ كعَظَمه فيه"(١)

(١) الدلائل من ص٩٣- ٩٦ بتصرف.

المبحث الثاني: معيار المزية والحسن في البلاغة العربية:

فرّق عبدُ القاهرِ الجرجاني بين تماسك يقومُ على فكرٍ ورويةٍ وحسن نظمٍ وتــأليف، وتعلق الكلامِ بعضه ببعض، وبين تماسك لا يعتمدُ على فكرٍ ورويةٍ، ولم يراع فيــه المتكلمُ إلّا الترابطَ الشكليَّ، وساق أمثلةً على ذلك؛ ومن ذلك قوله:" واعلــمْ أنَّ مــن الكلام ما أنتَ تعلمُ إذا تدبّرتهُ أن لم يحتجْ واضعهُ إلى فكرٍ ورويةٍ حتى انــتظمَ، بــل ترى سبيلَه في ضمّ بعضه إلى بعض، سبيلَ منْ عمدَ إلى لآلئ فخرطَها في سلك، لا يبغي أكثر من أن يمنعها التفرّق، وكمَنْ نضدَ أشياءَ بعضُها على بعض، لا يُريد فــي نضده ذلكَ أن تجيء له منه هيئةٌ أو صورةٌ، بل ليس إلاّ أنْ تكونَ مجموعةً في رأي العين، وذلك إذا كان معناك، معنى لا تحتاج أن تصنعَ فيه شيئًا غيرَ أنْ تعطفَ لفظاً على مثله، كقول الجاحظ: "جنّبكَ اللهُ الشبهةَ، وعصمكَ منَ الحيْرة، وجعلَ بينكَ وبينَ المعرفة نسباً، وبينَ الصدّق سبباً، وحبّبَ إليك التثبّت، وزيّن في عينــكَ الإنــصاف، وأذاقكَ حلاوةَ التّقوى، وأشْعرَ قلبكَ عزَّ الحقّ، وأوْدعَ صدرَكَ بردَ اليقــين، وطــردَ عنك ذلَّ اليأس، وعرّفكَ ما في الباطلِ من الذّلة، وما في الجهلِ من القلّة"[١]

إذاً... فنحن أمام تماسكٍ نصيٍّ وآخرَ شكليٍّ، والفرق بين الاثنين: أنّ الأولَ يؤثرُ فيه المتكلم رابطًا على رابط، ويُجهدُ عقلَه وفكره حتى يُصبحَ النصُّ الواحدُ علامةً دالــةً على صاحبه، والثاني: يكونُ الهدفُ فيه هو عمليةُ الربطِ فقط، حتى يــصبح الــنصُّ مترهلًا بالروابطِ دون لُحمَةٍ ذاتيةٍ وانسجامٍ داخليٍّ.

وعبد القاهر في هذا النصِّ النفيس يؤكدُ أنّ التحسينَ هو التحسينُ الناتج عــن الــنظم والتأليف، أمّا التحسينُ الشكليُّ الناتجُ عن الترابطِ الشكليِّ، فلا يَجبُ بــه فــضلٌ ولا مزية " وذلك لأنه لا فضيلةَ حتى ترى في الأمر مَصنعاً، وحتى تجدَ إلــى التخيُّــر سبيلاً، وحتى تكونَ قد استدركْتَ صواباً على حد تعبيره.

---

(١) الدلائل من ص٩٥.

ثم يؤكد على ذلك بقوله:" وجملة الأمر أن ههنا كلاماً حسنه للفظ دون النظم، وآخر حسنه للنظم دون اللفظ، وثالثاً قد أتاه الحسن من الجهتين، ووجبت له المزية بكلا الأمرين. والإشكال في هذا الثالث، وهو الذي لا تزال ترى الغلط قد عارضك فيه، وتراك قد حفت فيه على النظم، فتركته وطمحت ببصرك إلى اللفظ، وقدرت في حسن كان به وباللفظ، أنه للفظ خاصة. وهذا هو الذي أردت حين قلت لك: "إن في الاستعارة ما لا يمكن بيانه إلا من بعد العلم بالنظم والوقوف على حقيقته"(١)

ومن ثمّ فالتماسك عند عبد القاهر يقوم على صورتين : إحداهما: صورة اللفظ ، والأخرى: صورة المعنى، والصورة الأولى: هي الظاهرة أمامنا على السطح ويحدث " التماسك فيها من خلال بعض أدوات الربط اللفظية، ويطلق عليها الحداثيون " البنية السطحية"، والصورة الأخيرة: هي ما تعتمد على جانب الفكر وهى المعاني، ويطلق عليها الحداثيون " البنية العميقة" ، ولابد من تعلق الصورة الأولى " الألفاظ" بالصورة الثانية " المعاني" بحيث تتناسق دلالتها وتتلاقى معانيها على الوجه الذي ارتضاه العقل- كما قال عبد القاهر- وهذا التعلق لا يتصور في الكلمات حال إفرادها، وإنما يظهر واضحا حال التركيب، إذا لا يتعلق الفكر بمعاني الكلمات المفردة، وإنما يتعلق بها عندما تؤلف، ويضم بعضها إلى بعض، ومن خلال هذا الضم وذاك التأليف يكون النظم، يقول عبد القاهر:" والألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة، لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها، ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض، فيعرف فيما بينها فوائد، وهذا علم شريف، وأصل عظيم" (٢)

وعبد القاهر وهو يتحدث عن علاقة اللفظ بالمعنى يطيل المناقشات ويكثر من الشواهد والاستنتاجات حتى يقنع معاصريه الذين نسبوا الفضل والمزية للألفاظ دون المعاني وقصروا " النظم" على الألفاظ دون المعاني، بأنّ ما ذهبوا إليه ضلالة

(١) الدلائل من .ص٩٨-١٠٠.

(٢) دلائل الإعجاز صـ٥٣٩ .

عمياء وجهلٌ مستحكمٌ، كيف والألفاظ خدم للمعاني؟!، وأول تعلق للذهن وانشغال للفكر يكون بالمعنى دون اللفظ؟ وإذا رمت أن تنظم كلامًا في غرض ما، فأول ما يشغل ذهنك ويطرق قلبك هو المعنى، يقول عبد القاهر:" واعلم أنَّك إذا رجعتَ إلى نفسك علمت علمًا لا يعترضه الشك، أنْ لانظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلَّق بعضُها ببعض، ويُبنى بعضُها على بعض، ويُجعل هذه بسبب من تلك، هذا ما لا يجهله عاقلٌ ولا يخفى على أحدٍ من الناس، وإذا كان كذلك فبنا أنْ ننظر إلى التعليق فيها والبناء، وجعل الواحدةِ منها بسبب من صاحبتها ، ما معناه؟ وما محصوله؟ وإذا نظرنا في ذلك علمنا أن لا محصول لها غير أنْ تعمد إلى اسم فتجعله فاعلًا لفعل أو مفعولًا، أو تعمد إلى اسمين فتجعل أحدهما خبرًا عن الآخر، أوتتبع الاسم اسمًا على أن يكون الثاني صفة للأول، أو تأكيداً له، أو بدلًا منه، أوتجيء باسم بعد تمام كلامك على أن يكون صفة أو حالاً أو تمييزاً، أو تتوخى في كلام هو لإثبات معنى أن يصير نفياً أو استفهاماً أو تمنياً ، فتدخل عليه الحروف الموضوعة لذلك، أو تريد في فعلين أن تجعل أحدهما شرطاً في الآخر، فتجيء بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى، أو بعد اسم من الأسماء التي ضمنت معنى ذلك الحرف، وعلى هذا القياس، وإذا كان لا يكون في الكلم نظمٌ ولا ترتيبٌ إلّا بأنْ يصنع بها هذا الصنيع ونحوه، وكان ذلك كله مما لا يرجع منه إلى اللفظ شيء، ومما لا يتصور أن يكون فيه وفي صفته، بان بذلك أن الأمر على ما قلناه؛ من أنَّ اللفظ تبع للمعنى في النظم، وأن الكلم تترتب في النطق بسبب ترتب معانيها في النفس ، وأنها لو خلت من معانيه حتى تجرد أصواتاً وأصداء حروف لما وقع في ضمير ولا هجس في خاطر أن يجب فيها ترتيب ونظم [1]

وبالتأمل في النصوص السابقة نلحظ سيطرة فكرة التماسك النصي على البلاغة العربية، فإذا أضفنا إليها عبارات " النسج " و" الصياغة" و" التحبير" و" الوشي" و"

(١) دلائل الإعجاز ص ٥٥، ٥٦

البناء" والتفويف" والنقش" وهي عبارات ترددت كثيرًا في حديث عبد القاهر عن الضم والتأليف والنظم.

ونخلص من هذا إلى أن فكرة " التماسك" فكرة أساسية في تشكيل النص وتماسكه، وخلق الروابط اللازمة بين أجزائه ومكوناته، ومن ثم لا يتصور تحسين في اللفظ فقط، ولا في دلالته التنغيمية والتعبيرية مالم تكن المعاني هي المختارة له، وأنَّ أولى المعارف بالتحصيل في البلاغة العربية، هي معرفة النظم الذي هو أم الإعجاز، ولا سبيل إلى معرفة النظم إلا بإدراك العلاقات والوشائج والصلات بين أجزاء العمل الأدبي، حتى يجعل بعضها بسبب من بعض، ويبنى أول منها على ثان، وثان على ثالث... وهكذا، وحتى يكون النص قطعة واحدة، وبناءً متسقًا، وكلًا لا يتجزأ، ولله در العلامة الزمخشري وهو يلفت أنظار المفسرين إلى أهمية الدراسة النصية، ودور النظم في بيان ترابطه، واتساقه وانسجامه وإبراز أوجه التفاعل الداخلي، غير ساع إلى استيفاء المكونات الجزئية أو صحة التقسيم والإسناد، ، يقول الزمخشري معلقا على قوله تعالى:"(وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى * إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى *أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) [1] " والضمائر كلها راجعة إلى موسى. ورجوع بعضها إليه وبعضها إلى التابوت: فيه هجنة، لما يؤدى إليه من تنافر النظم. فإن قلتَ: المقذوف في البحر هو التابوت، وكذلك الملقى إلى الساحل. قلتُ: ما ضرك لو قلت: المقذوف والملقى هو موسى في جوف التابوت، حتى لا تفرق الضمائر فيتنافر عليك النظم الذي هو أم إعجاز القرآن. والقانون الذي وقع عليه التحدّى، ومراعاته أهم ما يجب على المفسر "[2]

(١) سورة طه الآيات ٣٧-٣٩.

(٢) الكشاف ٦٣/٣.

فانظر كيف وظف الزمخشري البلاغة النصية في الكشف عن وجوه الإعجاز، دون الخوض في آراء ومناقشات حول مرجعية الضمائر في الآيات الكريمة، فأي فائدة بلاغية من عود الضمير في قوله تعالى: (اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ) إلى موسى، وعوده في قوله تعالى: (فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ) وقوله: (فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ)إلى التابوت، أو موسى،؟ ! وكلها أمور تضعف النصية، بخلاف اتساق الضمائر كلها عائدةً إلى موسى –عليه السلام– إذ هو المَعْنِيُّ بالحديث، وعنايةُ السياق متجهةٌ إليه، فضلًا عن المحافظة عن النظم الذي هو أمُّ الإعجاز، وبه كان التحدي.

وقد سمَّى علماءُ النصِّ عودَ الضمائرِ على المذكور سلفًا بـ" الإحالة القبلية" وهي من أهمِّ عناصرِ التماسك النصيِّ عند (هاليدا) و (رقية حسن) على ما سيأتي بيانه.

****

الفصلُ الثالثُ: البديع من الوظيفة التحسينيَّة إلى النصيَّة

المبحثُ الأوَّل: أنظمةُ الربطِ بين علم البديعِ وعلمِ النصِّ.

المبحثُ الثاني: معجمُ المصطلحاتِ البديعيَّةِ النصيَّةِ.

المبحثُ الأولُ: أنظمةُ الربطِ بين علمِ البديعِ وعلمِ النصِّ:

يبدو أن سيطرة فكرة التفرقة بين اللفظ والمعنى - عند المعتزلة- قد عشعشتْ في أذهان كثير من الناس وباضتْ في عقولهم وأفرختْ، مما اضطر عبدَ القاهر أن يطيلَ النقاشَ والحديثَ في هذه المسألة، ومن هؤلاء القائلين بالتفرقة القاضي عبد الجبّار(النظّام) وهو ما صرّح به الشيخُ شاكر في تعليقه على كلام عبد القاهر(١)، يقول عبد القاهر في الرد على المعتزلي القاضي عبد الجبار في مسألة "اللفظ": فإنْ قيل: فماذا دعا القدماء إلى أن قسموا الفضيلة بينَ المعنى واللفظ، فقالوا: "معنى لطيف، ولفظٌ شريفٌ"، وفَخموا شأنَ اللفظِ وعظَّموه حتى تبعَهم في ذلك مَن بَعْدَهم، وحتى قالَ أهلُ النظرِ: "إنَّ المعاني لا تتزايد، وإنما تتزايدُ الألفاظُ، فأطلقوا كما ترى كلاماً يُوهمُ كلَّ مَنْ يَسمعهُ أنَّ المزيّةَ في حاق اللفظ، قيلَ له: لمّا كانت المعاني إنما تتبيّنُ بالألفاظ، وكانَ لا سبيلَ للمرتب لها والجامعِ شملَها، إلى أن يُعلمكَ ما صنعَ في ترتيبها بفكره، إلا بترتيب الألفاظ في نُطقه، تجوّزوا فكنَوا عن ترتيب المعاني بترتيب الألفاظ، ثم بالألفاظ بحذْف "الترتيب"، ثم أَتْبعوا ذلك منَ الوصف والنعْت ما أبانَ الغرضَ وكشفَ عن المُراد: كقولهم: "لفظٌ متمكنٌ"، يُريدون أنه بموافقة معناه لمعنى ما يليه كالشيء الحاصلِ في مكانٍ صالحٍ يطمئنُّ فيه "ولفظٌ قلقٌ نابٍ"، يُريدون أنه من أجل أنَّ معناهُ غيرُ موافقٍ لما يليه، كالحاصل في مكانٍ لا يَصلُح له، فهو لا

---

(١) "أهل النظر"، هو المتكلمون، ويعني بهم هنا المعتزلة. وقولهم هذا هو نص كلام القاضي عبد الجبار المعتزلي في كتابه المغني في الجزء ١٦: ١٩٩، بعنوان: "فصل في الوجه الذي له يقع التفاضل في فصاحة الكلام"، ونص كلام القاضي هو:" .... علي أن نعلم أن المعاني لا يقع فيها تزايد، فإذن يجب أن يكون الذي يعتبر، التزايذ عند الألفاظ التي يعبر بها عنها، كما ذكرنا"... هذا، واعلم أن أكثر ردود عبد القاهر في كتاب دلائل الإعجاز، هو ردود على مقالة المعتزلة، وعلى عبد الجبار خاصة، فاعرفه، وسأذكر إشارة عبد القاهر إلى ذلك في مواضعه. الدلائل ص٦٣

يستطيعُ الطمأنينةَ فيه إلى سائرِ ما يجيءُ في صفة اللفظ، مما يُعلَم أنه مستعارٌ له منْ معناه، وأنهم نَحلوه إيّاهُ، بسببِ مضمونه ومؤدّاه"(١)

ويُفهم من هذا النصِّ النفيس أنَّ تقسيمَ البديعِ إلى محسناتٍ لفظيةٍ ومعنويةٍ تقسيمٌ ينقصه الدقة؛ وبيان ذلك أنَّ هذا التقسيمَ يتكئ على أنَّ المحسّنَ اللفظيَّ ، هو ما كان التحسين فيه للفظ أولًا وللمعاني ثانيًا، وأنَّ المُحسّنَ المعنويَّ: هو ما كان التحسينُ فيه للمعنى أولًا وللفظ ثانيًا، وهذا كما – قلت– يقترب من كلام المعتزلة(النظام) ويتعارض مع فكرة النظم القائمة على التحسين المعنوي فقط، لأنَّ الألفاظ في ذلك تبعٌ للمعاني.

بالإضافة إلى ذلك... فمسائلُ البديعِ اللفظيَّةُ، لا يمكنُ أن يكون الإعجازُ فيها ناتجًا عن تلاؤم الحروف، كما أنَّ ترتيب الألفاظ ليس مطلوبًا بحالٍ، إلّا أن يكون ترتيبُ المعاني هو الذي استدعاها، وهو ما عناه عبد القاهر بقوله: " وأنتَ إن أردتَ الحقَّ لا تَطْلبُ اللفظَ بحالٍ، وإنّما تَطْلبُ المعنى، وإذا ظفرْتَ بالمَعنى، فاللفظُ معكَ وإزاءَ ناظرِك؟ وإنما كان يُتصوَّرُ أن يصْعُبَ مَرامُ اللفظ من أجلِ المعنى، أنْ لو كنتَ إذا طلبْتَ المعنى فحصّلْتَه، احتجْتَ إلى أن تَطْلبَ اللفظَ على حدَة. وذلك مُحَال"(٢)

السكاكي والبديع:

كانت هذه هي نظرة عبد القاهر لقطبي العلامة اللغوية(اللّفظ والمعنى) وهي نظرةٌ ألقتْ بظلالِها على مسائل البديع غيرُ مفرقة بين تحسينٍ لفظي وآخر معنوي، ناعيةً على من يتوهم أن يكون الحسنُ فيها عائدًا إلى اللّفظ كما في السجع والتجنيس، أمّا ما كان من تقسيم البديع إلى محسناتٍ لفظيّةٍ وأخرى معنويّة، فلم تنشأ تلك النظرة القائمةُ على تقسيمِ مسائل البديع إلى محسناتٍ لفظيةٍ وأخرى معنويةٍ إلّا على يد

(١) الدلائل ص٦٣، ٦٤.

(٢) الدلائل ص٨٧، ٨٨.

المتأخرين، وفي مقدمتهم السكاكي؛ فمن يتفحَّصُ المفتاحَ يدرك أنَّ السكَّاكيَّ حصر البلاغةَ العربيةَ في مرجعين اثنين، لا ثالث لها؛ هما: علمُ المعاني، وعلمُ البيان، ولم يكتف بالتنصيص، بل نصَّ على هذا في ممارسته التحليلية لبعض نصوص القرآن أيضًا، مما يؤكد عدم أصالة البديع، وإهماله لمسائله، ودورها البلاغي، فنراه يقول:" وإذ قد وقفتَ على البلاغة وعثرتَ على الفصاحة المعنويةِ واللفظيةِ فأنا أذكر على سبيل الأنموذج آيةً آكشفُ لك فيها عن وجوه البلاغة والفصاحتين ما عسى يسترها عنك، ثم إنْ ساعدك الذوقُ أدركتَ منها ما قد أدرك من تحدوا بها، وهي قوله: – علت كلمته– (وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين) **والنظر في هذه الآية من أربع جهات: من جهة علم البيان، ومن جهة علم المعاني وهما مرجعا البلاغة،** ومن جهة الفصاحة المعنوية، ومن جهة الفصاحة اللفظية "(١)

فهل نرى –في بلاغة السكاكي– وجودًا لمسائل علم البديع؟، وهل نلحظ أثرًا لقيمته البلاغية في الدراسة النصية التحليلية؟ وما معنى أن يسجل البديع حضورًا في البلاغة التعليمية دون الممارسة التحليلية؟

وهذه الرؤيةُ –لمسائل البديع– وضبطه لمعاقد علم البلاغة لم تكن بأفضلَ حالٍ ممَّا جاء بعده؛ حتى أنَّ من شُرَّاح التلخيص مَنْ ذهبَ إلى عدمِ اشتراطِ رعايةِ المطابقةِ ووضوحِ الدلالةِ في مسائلِ البديعِ، وكأنَّ الطباقَ والمقابلةَ ومراعاةَ النظيرِ...إلخ لا علاقةَ لها بالمقامِ، وكأنَّ مسائلَ علمِ المعني أحسنُ حالًا من علم البديع، وكأنَّ مسائلَ علمِ البيان تزيدُ درجةً على مسائل البديع، وكأنَّ المقامَ يحابي مسائلَ علمِ المعاني من

(١) مفتاح تلخيص المفتاح للعلامة شمس الدين محمد بن مظهر الخطيب الخلخالي المتوفي ٧٤هـ– تحقيق/ هاشم محمد هاشم– المكتبة الأزهرية للتراث– مصر– الطبعة الأول– ٢٠٠٧– ص ٢٢٨.

تقديمٍ وتأخيرٍ وذكرٍ وحذفٍ وتعريفٍ وتنكيرٍ وإظهارٍ وإضمارٍ وفصلٍ ووصلٍ ... على حسابِ مسائلِ البديعِ من طباقٍ ومقابلةٍ ولفٍ ونشرٍ ومراعاةِ نظيرٍ ومشاكلةٍ؟[1]

ثم أين بلاغة مسائل علمي المعاني والبيان من بلاغة الطباق في سياق العظمة وإثبات القدرة والهيمنة في قوله تعالى:" (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)[2]؟! وكذلك قوله تعالى: (وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى* وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا* وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى* مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى* وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى* وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى)[3]؟!

لا شكَّ أنَّ الاحتكام إلى قضية المقام ومراعاة أحوال المستمعين ونوازعهم التي هي عمادُ الدرس البلاغي جعلتْ المسائلَ البلاغيةَ كلَّهاعلى قدمِ المساواة؛ معانيها وبيانها وبديعها.

فإذا أضفنا إلى ذلك أن فائدةَ المرجوة من ضبطِ معاقدِ العلوم –التي تحسب للسكاكي– أنْ يتمَّ استدعاؤها في الدراسة التطبيقية، أمَّا أنْ تفيدَ في البلاغة التعليمية ولا تفيد في البلاغة النصية، فهذا ممَّا لم يقل به عاقل، ولا يتصور بحال أن تفيد مسائل البلاغة في حالة دون أخرى، وإذا رمتَ دليلًا على غياب مسائل البديع في الدراسة التحليلية التطبيقية عند السكاكي فتأمل قوله تعقيبا على قوله تعالى:" وقيل يا أرض ...إلخ " والنظرُ فيها من جهةِ علمِ البيانِ: وهو النظرُ فيما فيها من المجازِ والاستعارةِ والكنايةِ وما يتصلُ بها فنقول: أنَّه عزَّ سلطانُه لمَّا أراد أن يُبينَ معنى " أردنا أنْ نردَ ما انفجر من الأرض على بطنها فارتدَّ، وأنْ نقطع طوفان السماءِ

(١) ينظر عروس الأفراح لبهاء الدين السبكي ضمن شروح التلخيص– دار الكتب العلمية– بيروت– لبنان– ٤/٢٨٤.

(٢) سورة آل عمران الآية ٢٦.

(٣) سورة النجم الآيات من ٤٣–٤٨.

فانقطعَ، وأنْ نغيضَ الماءَ النازلَ من السماء فغاضَ، وأنْ نقضيَ أمــر نــوح وهــو إنجازُ ما كنا وعدنا من إغراق قومه فقضى، وأن نسويَ الــسفينةَ علـــى الجــودي فاستوت، وأبقينا الظلمةَ غرقى... ثم بنى على تشبيه هذا نظم الكــلام فقــال –جــل وعلا–: " قيل" على سبيلِ المجازِ عن الإرادة الواقعِ بسببها قولُ القائل، وجعل قرينةَ المجازِ الخطابَ للجمادِ وهو " يا أرض" و" يا سماء" ثم قال كما تــرى: يــا أرضُ ويا سماءُ مخاطبًا لهما على سبيل الاستعارة للشبه المذكور، ثم استعار لغؤور المـــاء في الأرض" البلع " الذي هو إعمالُ الجاذبةِ في المطعومِ للشبه بينهما؛ وهو الــذهابُ على مقرٍ خفي، ثمَّ استعار "الماء" للغذاء استعارةً بالكنايةِ تشبيهًا له بالغــذاء؛ لتقــوي الأرضِ بالماء في الإنبات للزروع والأشجار تقوي الآكلِ بالطعــامِ، وجعــل قرينـــة الاستعارة لفظة "ابلعي"؛ لكونها موضوعة للاستعمال في الغذاء دون الماء، ثم أمــر على سبيل الاستعارة للشبه المقدم ذكره، وخاطب في الأمر ترشحًا لاستعارة النــداء، ثم قال: "ماءك" بإضافة الماء إلى الأرضِ على سبيل المجاز؛ تشبيهًا لاتصال المـــاء بالأرض باتصال الملك بالمالك، واختار ضمير الخطاب لأجل الترشيح، ثــم اختـــار لاحتباس المطر الإقلاع الذي هو تركُ الفاعلِ الفعلَ للشبه بينهما في عدم ما كان، ثم أمر على سبيل الاستعارة وخاطب في الأمر قائلاً " أقلعي" لمثل ما تقدم في "أبلعـــي" ثم قال " وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي " وقيل بعدًا، فلم يصرح بمَنْ غاض الماءُ ولا بمَنْ قضي الأمرُ، وسوى السفينةَ، وقال "بعدا" كما لم يــصرح بقائل " يا أرض ويا سماء" في صدر الآية؛ سلوكًا في كل واحد مــن ذلــك لــسبيل الكناية أنَّ تلك الأمور العظام لا تتأتى إلّا من ذي قدرة لا يكتنه؛ قهارٌ لا يغالبُ فــلا مجال لذهاب الوهم على أن يكون غيره –جلت عظمته– قائل: يا أرض ويا ســماء، ولا غائض مثل ما غاض، ولا قاضي مثل ذلك الأمر الهائل، أو أن تكــون تــسوية السفينة وإقرارها بتسوية غيره وإقراره، ثم ختم الكلام بــالتعريض تنبيهًــا لــسالكي مسلكهم في تكذيب الرسل ظلمًا لأنفسهم لا غير ختمَ إظهارٍ لمكان الــسخطِ ولجهـــة استحقاقهم إياه وأن قيمة الطوفان وتلك الصورة الهائلة ما كانت إلا لظلمهــم، **وأمـــا**

النظر فيها من حيث علم المعاني؛ وهو النظر في فائدة كل كلمة منها، وجهة كل تقديم وتأخير فيما بين جملها، ذلك أنه اختير "يا" دون أخواتها؛ لكونها أكثرُ في الاستعمال؛ وأنها دالةٌ على بُعد المنادي الذي يستدعيه مقام إظهار العظمة وإبداء شأن العزة والجبروت، وهو تبعيد المنادي المؤذن بالتهاون به، ولم يقل: " يا أرض" بالكسر لإمداد التهاون، ولم يقل: "يا أيتها الأرض" لقصد الاختصار مع الاحتراز عمَّا في "أيتها" من تكلف التنبيه غير المناسب بالمقام، واختير لفظ "الأرض" دون سائر أسمائها لكونه أخف وأدور، واختير لفظ "السماء" لمثل ما تقدم في "الأرض" مع قصد المطابقة وستعرفها، واختير لفظ "ابلعي" على "ابتلعي" لكونه أخصر؛ ولمجيء خط التجانس بينه وبين اقلعي أوفر، وقيل: "ماؤك" بالإفراد دون الجمع؛ لما كان في الجمع من صورة الاستكثار المتأبى عنها مقام إظهار الكبرياء والجبروت، وهو الوجه في إفراد الأرض والسماء، وإنما لم يقل: "ابلعي" بدون المفعول أن لا يستلزم تركه ما ليس بمراد من تعميم الابتلاع للجبال والتلال والبحار وساكنات الماء بأسرهن نظرًا على مقام ورود الأمر الذي هو مقام عظمة وكبرياء، ثم إذا بين المراد اختصر الكلام من أقلعي احترازًا عن الحشو المستغنى عنه وهو الوجه في أن لم يقل، قيل يا أرض ابلعي ماءك فبلعت ويا سماء أقلعي فأقلعت، واختير "غيض" على غُيِّضَ؛ لكونه أخصر، وقيل: "الماء" دون أن يقال ماء طوفان السماء، وكذا الأمرُ دون أن يقال: أمر نوح وهو إنجاز ما كان الله وعد نوحا من إهلاك قومه لقصد الاختصار والاستغناء بحرف التعريف عن ذلك، ولم يقل: "سُوِّيت على الجودي" بمعنى "أقرت" على نحو "قيل" و"غيض" و"قضى" في البناء للمفعول؛ اعتبارا لبناء الفعل للفاعل مع السفينة في قوله " وهي تجري بهم في موج " مع قصد الاختصار في اللفظ، ثم قيل: "بعدا للقوم" دون أن يقال: " ليبعد القوم" طلبًا للتأكيد مع الاختصار؛ وهو نزول " بعدا" منزلة " ليبعدوا بعدا" مع فائدة أخرى وهو استعمال "اللام" بعد "بعدا" الدال على معنى أن البعد حق لهم، ثم أطلق الظلم؛ ليتناول كل نوع حتى يدخل فيه ظلمهم أنفسهم" لزيادة التنبيه على فظاعة سوء اختيارهم في

تكذيب الرسل، **هذا من حيث النظر على تركيب الكلم، وأما من حيث النظر على ترتيب الجمل،** فذاك أنَّه قد قدَّم النداء على الأمر، فقيل: "يا أرض ابلعي ويا سماء أقلعي" دون أن يقال: "ابلعي يا أرض وأقلعي يا سماء" جريًا على مقتضى اللازم فيمن كان مأمورًا حقيقةً من تقديم التنبيه؛ ليتمكن الأمر الوارد عقيبه في نفس المنادي؛ قصدًا بذلك لمعنى الترشيح، ثم قدَّم أمرَ الأرض على أمرِ السماء وابتدئ به لابتداء الطوفان منها، ونزولها لذلك في القصة منزلة الأصل، والأصل بالتقديم أولى، ثم أتبعهما قوله: "وغيض الماء" لاتصاله بقصة الماء وأخذه بحجزتها، ألا ترى أصل الكلام " قيل يا أرض ابلعي ماءك " فبلعت ماءها " ويا سماء أقلعي " عن إرسال الماء فأقلعت عن إرساله " وغيض الماء " النازل من السماء فغاض، ثم أتبعه ما هو المقصود من القصة، وهو قوله " وقضي الأمر " أي أنجز الموعود من إهلاك الكفرة وإنجاء نوح ومن معه في السفينة، ثم أتبعه حديث السفينة، وهو قوله " واستوت على الجودي " ثم ختمت القصة بما ختمت، هذا كله نظر في الآية من جانبي البلاغة.

وأمَّا النظر فيها من جانب الفصاحة المعنوية فهي كما ترى نظم للمعاني لطيف، وتأدية لها ملخصة مبينة، لا تعقيد يعثر الفكرة في طلب المراد ولا التواء يشيك الطريق على المرتاد، بل إذا جربت نفسك عند استماعها وجدت ألفاظها تسابق معانيها ومعانيها تسابق ألفاظها، فما من لفظة في تركيب الآية ونظمها تسبق على أذنك إلا ومعناها أسبق على قلبك، **وأما النظر فيها من جانب الفصاحة اللفظية** فألفاظها على ما ترى عربية مستعملة، جارية على قوانين اللغة سليمة عن التنافر، بعيدة عن البشاعة عذبة على العذبات، سليسة على الإسلاسات، كل منها كالماء في السلاسة، وكالعسل في الحلاوة، وكالنسيم في الرقة"[1].

(١) المفتاح ص٢٢٩-٢٣١

هكذا أطال السكاكي الوقوفَ مع مسائل علمي المعاني والبيان، دون الحديث عن مسائل علم البديع، ودورها في إحداث التماسك والترابط بين أجزائها، صحيح... أنه لم يدع أنه أحاط علما بالآية وبمكامن أسرارها، أو أنه وقف على دقائقها، وما ينبغي الوقوف عليه منها، وإنما ترك الأمر لمن يأتي بعده كي يستخرج من دررها ولطائفها وأسرارها ما يشاء، ومن ثم نراه يقول: " ولله در شأن التنزيل لا يتأمل العالم آية من آياته إلا أدرك لطائف لا تسع الحصر ولا تظنن الآية مقصورة على ما ذكرت، فلعل ما تركت أكثر مما ذكرت لأن المقصود لم يكن إلا مجرد الإرشاد لكيفية اجتناء ثمرات علمي المعاني والبيان"(١).

ولكن ألا يحتاج الأمر وقفة متأنية، أين البديع من مرجعي البلاغة على حد قوله(المعاني– البيان)؟ وأين البديع من معالجته النصية السابقة؟

إنَّ حديث السكاكي عن البديع جاء عرضًا، ولم يحظ في كتاب "المفتاح" الذي جمع صنوفا من العلوم إلا على مساحة ضئيلة، فبعد أن قرر مسائل المعاني والبيان، وأبان عن حاجة المتعلم إليهما، ذكر أن مسائل البديع قد يسار إليها بقصد تحسين الكلام وتزيينه، يقول السكاكي: " وإذ قد تقرر أن البلاغة بمرجعيها، وأن الفصاحة بنوعيها مما يكسو الكلام حلة التزيين ويرقيه أعلى درجات التحسين، فها هنا وجوه مخصوصة كثيراً ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام، فلا علينا أن نشير على الأعرف منها، وهي قسمان: قسم يرجع على المعنى وقسم يرجع على اللفظ" (٢).

وقد تمثل عرضه في أمرين:

الأولُ: حصر وظيفة البديع في الوظيفة التحسينيَّة، وهو ما ألحق بعلم البديع الضيم والهوان؛ وليس أدل على ذلك من إهمال السكاكي له في مفتاح العلوم، دون علمي

(١) المفتاح ص٢٣١، ٢٣٠.

(٢) المفتاح ص٢٣١

المعاني والبيان، ثم ما لحق به على يد شراح التلخيص من عبارات الازدراء والتهوين، والتقليل من شأنه وقيمته البلاغية، ولذا أخّروه في الرتبة والمنزلة، يقول سعد الدين التفتازاني موضحًا سبب تقديم علم البيان على علم البديع:" قدّمه (أي الخطيب) على البديع؛ لشدة الحاجة إليه؛ لكونه جزءًا من علم البلاغة، ومحتاجًا إليه في تحصيل بلاغة الكلام، بخلاف البديع، فإنه من التوابع" (١)

فالبديع –في نظر المتأخرين– لا حاجة إليه، وليس جزءا أصيلًا من البلاغة، ولذا فهو تابع عرضي، وهي قضيةٌ استهلكت جهود علمائنا الكرام البررة، وشغلتهم زمنًا طويلًا؛ كي ينتقلوا به من دائرة التحسين العرضي إلى التحسين الذاتي، وهو جهد مشكور، كاد أصحابه أن ينهلوا من ماء البئر، دون أن يعكّرَ صفوُه، وأن يقتربوا من ثمار الحديقة دون أن يُزعج طائرَها أحدٌ، غير أنّهم ما زالوا في شباك الوظيفة التحسينية... صحيح أنّهم انتهوا إلى أنّ التحسين ذاتيٌ، وأنّه مطلبٌ سياقٍ ومقتضى مقامٍ، غير أنّ الوظيفة التحسينية ليست هي عماد الدرس البديعي المرجو تحققُها، والمنتظرُ شغلُها، وإنّما الوظيفيةُ الأساسيةُ التي يمكن لنا أن نتلمسها من مصطلحات البديع (النظرية)، وممارساته (التطبيقية) في النظم القرآني والبيان النبوي، والأجناس الأدبية لأساطين العرب شعرًا ونثرًا هي مراعاةُ عمليةِ (الإحكام والترابط) بين أجزاء النص، أو ما يعرف بـ" التماسك النصي" وهي الوظيفة التي تسعى الدراسة إلى تقريرها وإظهارها، ولا تكون تلك الوظيفة من خلال الاقتصار على بيان المحسن اللفظي والمعنوي، وإنّما من خلال بيان ما أسهمتْ به مسائل البديع(اللفظية، والمعنوية) من تماسكٍ وترابطٍ واتساقٍ وانسجامٍ بين أجزاء العمل الأدبي، وهو غاية الدراسة وهدفها.

(١) المطول في شرح تلخيص المفتاح لسعد الدين مسعود التفتازاني الهروي– المكتبة الأزهرية للتراث– القاهرة– ص٣٠٠.

الثاني: حصر علم البديع في النظرة الجزئية الضيقة المتمثلة في الشاهد والمثال مما جعل المعالجة البلاغية قاصرةً على الجملة، وإذا تجاوزتها فإلى الجملتين، باحثة عن استيفاء مكونات المسألة البديعية، وصحة التقسيم، والاكتفاء ببيان المحتوى الجزئي للنصِّ، وهي كثيرةٌ في كل مصطلح، وأوضح من أن ندلِّل عليها؛ كالحديث عن الطباق وأنواعه، وما يلحق به، والحديث عن المقابلة وأنواعها، والجناس وأنواعه التام منه والناقص، واللَّف والنَّشر وأنواعه المرتب منه والمشوش... وغير ذلك، وكلها أمور- كما قلت- تدور في فلك الشاهد والمثال والجملة، بعيدًا عن المعالجة النصيَّة القائمةِ على إبراز التفاعل الكلِّي للنص، وإظهار أوجه التفاعل والتماسك والانسجام والاتساق داخله.

على أنَّنا لا نعدمُ من يتنبه لدور المسائل البديعية التي لا تقل شأنا عن مسائل علمي المعاني والبيان، وهو يحلل نفس الآيات التي عالجها السكاكيُّ من قبل، مبينًا دور البديع في بيان المحتوى الكلي للنص، ومبرزًا دوره في إحداث التفاعل الداخلي داخل النصِّ، وهو ما ذكره ابن أبي الإصبع قائلا: " وما رأيت في جميع ما استقريت من الكلام المنثور والشعر الموزون كآية كريمة من كتاب الله تعالى: استخرجت منها إحدى وعشرين ضرباً من المحاسن، وهي قوله تعالى: " وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين " وهي (المناسبة) التامة بين أقلعي وابلعي، و(المطابقة) بذكر الأرض والسماء، والمجاز في قوله " يا سماء " فإن المراد والله أعلم يا مطر السماء، والاستعارة في قوله " أقلعي "، و(الإشارة) في قوله تعالى " وغيض الماء " فإنه عبر بهاتين اللفظتين عن معان كثيرة، والتمثيل في قوله تعالى " وقضي الأمر " فإنه عبر عن هلاك الهالكين ونجاة الناجين بلفظ فيه بعد عن لفظ المعنى الموضوع له، والإرداف في قوله تعالى: " واستوت على الجودي " فإنه عبر عن استقرارها بهذا المكان، وجلوسها جلوسًا متمكنًا لا زيغ فيه ولا ميل، بلفظ قريب

من لفظ المعنى، و(التعليل) لأن غيض الماء علة الاستواء، و(صحة التقسيم) إذ استوعب سبحانه أقسام أحوال الماء حالة نقصه، إذ ليس إلا احتباس ماء السماء، واحتقان الماء الذي ينبع من الأرض، وغيض الماء الحاصل على ظهرها. و(الاحتراس) في قوله تعالى: " وقيل بعداً للقوم الظالمين " إذ الدعاء يشعر بأنهم مستحقوا الهلاك احتراساً من ضعيف يتوهم أن الهلاك لعمومه ربما شمل من يستحق ومن لا يستحق فتأكد بالدعاء على الهالكين لكونهم مستحقين ذلك، و(الإيضاح) في قوله للقوم ليتبين لهم أن القوم هم الذين سبق ذكرهم في الآية المتقدمة عليها، حيث قال تعالى: " وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه " وفي قوله قبل ذلك " ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون " فأتى سبحانه في آخر هذا الآية بلفظة القوم التي الألف واللام فيها للعهد ليبين أنهم القوم الذين سبق ذكرهم ووصفهم بالظلم كما وصفهم في أول الكلام بالظلم، وذلك مما يوضح المعنى ويبينه، فعلم أن لفظة القوم هاهنا ليست فضلة في الكلام، وأنها يحصل بسقوطها لبس في المعنى، وعدم بيان الكلام محتاج له، والمساواة، لأن لفظ الآية لا يزيد على معناها، و(حسن النسق) لأنه سبحانه عطف القضايا بعضها على بعض بحسن ترتيب حسبما ما وقعت، و(ائتلاف اللفظ مع المعنى) لأن كل لفظة لا يصلح موضعها غيرها، والإيجاز لأنه سبحانه اقتص القصة بلفظها مستوعبة بحيث لم يخل منها بشيء في أخصر عبارة، و(التسهيم) لأن أول الآية إلى قوله تعالى: أقلعي يقتضي آخرها، و(التهذيب) لأن مفردات الألفاظ موصوفة بصفات الحسن كل لفظة سمحة سهلة، مخارج الحروف عليها رونق الفصاحة، مع الخلو عن البشاعة والتركيب، سليمة من التعقيد وأسبابه، والتقديم والتأخير والحذف المخل والزيادة المسهبة وحسن البيان من جهة أن السامع لا يتوقف في فهم معنى الكلام، ولا يشكل عليه شيء من هذا النظام، والتمكين، لأن الفاصلة مستقرة في قرارها، مطمئنة في مكانها، غير قلقة ولا مستدعاة، و(الانسجام) وهو تحدر الكلام بسهولة كما ينسجم الماء وينساب انسياب العليل من الهواء، وما في مجموع الآية من (الإبداع) وهو الذي سمى به هذا الباب

من أن كل لفظة لا تخلو عن أن يستخرج منها ضرب أو ضربان من البديع، فهذه آية عدة ألفاظها سبع عشرة لفظة تتضمن إحدى وعشرين ضرباً من البديع غير ما يتعدد من ضروبها، فإن الاستعارة وقعت منها في موضعين: وهما استعارة الابتلاع للأرض، والإقلاع للسماء. والمجاز في مكانين، في قوله سبحانه " ويا سماء " وفي الإشارة والتمثيل والإرداف لأن المجاز مجازان: مجاز بالحذف، ومجاز بالتغيير، وقد وقعا معاً فانظر رحمك الله إلى عظمة هذا الكلام، لتعلم ما انطوى عليه نظمه، وما تضمنه لفظه"(١).

ثم يشفع ذلك بممارسة تطبيقية –ثانية– لحسن النسق الذي لا يقلُّ شأنًا عن (مفهوم التماسك) في الدراسات النصية، وما أفاده مصطلح الاحتراس في بيان مقصود النص القرآني حتى لا يتوهم فهم غير المراد، قائلا:" ومن شواهد هذا الباب في الكتاب العزيز قوله تعالى: (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)(٢)، فأنت ترى إتيان هذه الجمل معطوفًا بعضها على بعض بواو النسق على الترتيب الذي تقتضيه البلاغة؛ لأنَّه سبحانه بدأ بالأهم، إذ كان المراد إطلاق أهل السفينة من سجنها،ولا يتهيأ ذلك إلا بانحسار الماء عن الأرض، فلذلك بدأ بالأرض، فأمرها بالابتلاع، ثم علم –سبحانه – أن الأرض إذا ابتلعت ما عليها من الماء ولم تقطع مادة الماء تأذى بذلك أهل السفينة عند خروجهم منها، وربما كان ما ينزل من السماء مخالفًا لما تبتلعه الأرض، فلا يحصل الانحسار، فأمر سبحانه السماء بالإقلاع بعد أمره الأرض بالابتلاع، ثم أخبر بغيض الماء عند ما ذهب ما على الأرض، وانقطعت مادة السماء، وذلك يقتضي أن يكون ثالث الجملتين المتقدمتين، ثم قال تعالى: "وقضي الأمر"، أي هلك من قُدِّرَ هلاكه، ونجا من قُضيتْ نجاته، وهذا كنه الآية،

(١) تحرير التحبير ص٦١١-٦١٣.

(٢)– سورة هود الآية ٤٥.

وحقيقة المعجزة، ولا بدَّ وأن تكون معلومةً لأهل السفينة، ولا يمكن علمهم بها إلَّا بعد خروجهم منها، وخروجهم منها موقوفٌ على ما تقدم، فلذلك اقتضت البلاغة أن تكون هذه الجملة رابعة الجمل، وكذلك استواء السفينة على الجودي، أي استقرارها على المكان الذي استقرت فيه استقرارًا لا حركة معه، لتبقى آثارها آية لمن يأتي بعد أهلها، وذلك يقتضي أن يكون بعد ما ذكرنا، وقوله سبحانه: "وقيل بعدًا للقوم الظالمين"، هذا دعاءٌ أوجبه الاحتراس ممن يظن أن الهلاك ربما شمل من لا يستحق، فدعا سبحانه على الهالكين، ووصفهم بالظلم احتراسًا من هذا الاحتمال، وذلك يقتضي أن تكون بعد كل ما تقدم، والله أعلم.فانظر إلى حسن هذا النسق، وكيف وقع القول فيه وفق الفعل سواء"(١).

ونص ابن أبي الإصبع يؤكد ضرورة النظرة النصية لمسائل البديع؛ لأنَّ التماسك والترابط فيها كان على مستوى النص، وليس على مستوى الجملة والجملتين كما يدعي بعض المنتسبين للحداثة، فالنص القرآني تجاوز الخمس جمل، وكذلك الأبيات التي استشهد بها ابن أبي الأصبع تجاوزت أحد عشر بيتًا، وهذا يؤكد أنَّ نظرة علمائنا الكرام البررة للنص كانت نظرةً كليةً تهدف إلى كشف المحتوى الكلي، وإبراز أوجه التفاعل الداخلي للنص.

أنظمة الربط بين علم البديع وعلم النص:

لا يمكنُ الفصلُ بين المحسنات اللفظية والمعنوية أثناء الحديث عن التماسك النصي؛ تحقيقا للإحكام والتماسك والترابط؛ إذ هما وجهان لعملة واحدة، وإلَّا نكون قد وقعنا فيما وقع فيه المعتزلة من التفرقة بين اللفظ والمعنى، ومع ذلك لا نعدم أن نجد

(١) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن- المؤلف: عبد العظيم بن الواحد بن ظافر ابن أبي الإصبع العدواني، البغدادي ثم المصري (المتوفى: ٦٥٤هـ)- تحقيق: الدكتور حفني محمد شرف- الناشر: الجمهورية العربية المتحدة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية لجنة إحياء التراث الإسلامي- ص ٤٢٥ – الجزء الثالث.

مصطلحات بديعية يغلب فيها الاتساق والانسجام الدلالي على التماسك اللفظي، وبعضها يغلب فيها التماسك اللفظي على الانسجام والاتساق الدلالي، بمعنى أنهما يشتركان في عملية الترابط، ولكن قد تظهر هذه الأنظمة على السطح فيكون التماسك لفظيًا، وقد تظهر علاقات الترابط في تنامي الدلالة على المعاني وانسجامها فيكون التماسك دلاليًا، وبالمثال يتضح المقام.

الاحتباك:

مفهومه: أن يجتمع في الكلام متقابلان، يحذف أحدهما لدلالة الآخر عليه، وهو من الحسنات المعنوية عند البلاغيين المتأخرين، يؤدي وظيفة نصية، وهي الربط، والربط هنا لا يقتصر على الناحية الدلالية(المعنوية)، وإنما يتجاوزها إلى الناحية الشكلية(اللفظية) أيضًا، والأمثلة كثيرة، منها قوله تعالي لسيدنا موسى عليه السلام: (وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ)- النمل الآية ١٢- فالمنطقي أدخل يدك في جيبك تدخل، وأخرجها تخرج، ولكن من شدة الإحكام والتربط والتماسك بين الألفاظ لم نشعر بالمحذوف، ومن شدة الانسجام والاتساق بين الدخول والخروج لم نشعر أنهما ضدان، بل سلمنا بمنطوق الآية على حالها، كما سلمنا بمفهومها، مع أن الترتيب المنطقي أدخلها تدخل، أخرجها تخرج.

ومن هنا لا نلحظ فصلًا بين التماسك اللفظي، والانسجام والاتساق الدلالي الذي أحدثه (الاحتباك) فلم فصلنا بين اللفظ والمعنى؛ فجعلناه من المحسنات المعنوية؟ وكذلك الحال في قوله تعالى: (وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا) – التوبة الآية ١٠٢- فالخلط لا يكون إلا بين أمرين خلطوا عملًا صالحًا بسيء، وآخر سيئًا بصالح، فالحذف هنا أدى إلى إحكام البنية الشكلية(الألفاظ) مع اتساق وانسجام في البنية العميقة(المعاني) ودليل ذلك أننا لم نشعر بالمحذوف لا على صعيد الألفاظ، ولا على صعيد المعاني، مما يجعلنا نتساءل عن سبب الحذف بهذا الأسلوب العجيب: هل عناية النظم القرآني تتجه إلى اكتناز الأحداث مع

مراعاة الإحكام والترابط بين أجزاء النص؟ أم شيء آخر؟ وكذلك الحال في المقابلة، والطباق لايمكن فصل الألفاظ عن معانيها حتي يطلق على بعضها محسنات لفظية وأخرى معنوية، ثم هل تتخيل أن يكون رد العجز على الصدر من المحسنات اللفظية، ولنا أن نتسآل أي رد ؟ أليس رد الألفاظ التي تحمل المعاني، وأليس النظم القرآني كما قال الخطابي: لفظ حامل ومعنى به قائم ورباط بينهما ناظم.

أنظمة الربط عند علماء النص(١):

قبل الحديثِ عن أنظمةِ الربط في علم البديع يجدر بنا أولًا التعرف على أنظمة الربط في علم النصِّ، وهي لا تقتصر على حروف العطف، أو ما يعرف في البلاغة العربية بمبحثي (الفصل والوصل) وإنَّما تتسع لتشمل أنظمةً عديدة، ومن الممكن أن نسلك مسائل البديع في تلك السلسلة من الأنظمة الرابطة؛ حتى ننتقل به من دائر التحسين إلى فضاء النصِّ، وعناصر تكوينه، وضبطه واتساقه وإحكامه، غير أنَّنا يجب أن نتعرف – أولًا– على تلك الأنظمة حتى تتضح الرؤية، وتظهر الفكرة:

(١)– ينظر في ذلك " نحو النص بين الأصالة والحداثة" تأليف دكتور/ أحمد محمد عبد الراضي– مكتبة الثقافة الدينية– مصر– ١٤٢٩ه ٢٠٠٨م، وينظر" المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب– تأليف دكتور/ نعمان بوقرة – عالم الكتب الحديث– الأردن– ط الأولى– ١٤٢٩هـ٢٠٠٩م، وينظر" في السانيات ونحو النص " تأليف دكتور / إبراهيم خليل – جامعة الأسكندرية، وينظر: علم لغة النص – تأليف دكتور/ سعيد بحيري، وينظر: السبك في العربية المعاصرة بين المنطوق والمتكوب–تأليف/ محمد سالم أبو عفرة– مكتبة الآدب– القاهرة– الطبعة الأولى– ١٤٣١هـ٢٠١٠م.، وينظر" الاتساق النصي في التراث العربي" تأليف أ. نعيمة سعدية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة محمد خضير– بسكرة– الجزائر– مجلة كلية الآداب – العدد الخامس– ٢٠٠٩، وينظر التماسك النصي بين التراث والغرب– تأليف/ تارا فرهاد شاكر– جامعة صلاح الدين بأربيل– كلية اللغات– المجلد ٢٢– العدد ٦– ٢٠١٤. شبكة التواصل، وينظر" عناصر التماسك النصي بين نظرية النظم وعلم النص للباحث– مجلة كلية البنات الأزهرية بالعاشر من رمضان– العدد الأول ٢٠١٦.

أولًا: الإحالة:

الإحالة من عناصر التماسك، وتعني باختصار: العناصر الإشارية؛ قبلية كانت أم بعدية، لغوية كانت أم غير لغوية، ومن ثمّ تجدر الإشارة إلى أهمية تحديد العنصر الإشاري المحال إليه، سواء كان ذاتًا كالإحالة على الأشخاص والحيوانات والطيور ...أو الإحالة على معنى من المعاني، وهذا العنصر الإشاري المحال إليه قد يحال إليه في النصّ الواحد أكثر من مرة، مما يؤدي إلى تماسك النصّ، وتكون الإحالة بالضمائر، وأسماء الإشارة، والموصولات، والتعريف.

ويكثر هذا هذا النوع من الإحالة في النحو العربي أو بتعبير بلاغي في " علم المعاني" أي معاني النحو، وبالتحديد في الحديث عن أحوال تعريف المسند والمسند إليه، في باب الضمائر بأنواعها المختلفة، وفي باب الأسماء الموصولة وما تستلزمه من ضمير في جملة الصلة، وفي باب أسماء الإشارة القريبة والبعيد التي تُعيِّنُ مسماها بواسطة الإشارة، وفي باب التعريف بالعلمية و"ال" التعريفية، وكلها أنظمة تؤدي إلى تماسك النص وإحكامة، شريطة أن يُنظر إليها في ضوء بلاغة النصّ وليس بلاغة الجملة التي تسعى إلى استيفاء المكونات البلاغية وصحة الإسناد.

أمَّا فيما يخصُّ علمَ البديع، فأحتاج أن أسوق في ذلك معاني المصطلحات البديعية ليُعلم أنَّه لم يُرد به تحسينٌ فقط، وإنَّما قُصد بها تماسك لفظي ودلالي، على ما سيأتي بيانه في الحديث عن معجم المصطلحات البديعية النصيَّةِ

ثانيا: أدوات الاقتران:

وتشمل حروف العطف، وأدوات الشرط، وأدوات التشبيه، وأفعل التفضيل، والتكرار، وأدوات التفصيل، وأدوات الإضراب...إلخ. ويختلف مفهوم الوصل عند المحدثين عنه في البلاغة العربية، حيث شرطه عبد القاهر أن يكون بالواو خاصة، أما (هاليداي) و(رقية حسن) فقد قسما الوصل إلى أربعة" أقسام هي:

الوصل الإضافي: ويكون بحروف العطف

الوصل العكسي: ويكون من خلال التراكيب الآتية نحو(إلّا أنَ) و(بالرغم من)و(على عكس ذلك) وسمي عكسيًا لأنّه يفيد عكس الحكم المعطوف عليه، وأقرب الحروف شبها بهذا الوصل حروف الاستدراك.

الوصل السببي: ويتمثل في كل ما هو سببٌ من الأخر، أو نتيجةٌ له، نحو قولنا: (لذلك، ولهذا، وعليه، ومن ثمّ، وبالتالي، إجابة على ذلك"

الوصل الزمني: ويتمثل في العبارت الدالة على الزمان والمكان، نحو(من هنا، وفي الوقت، بعد هذا، قبل هذا)

ثالثا- الاستبدال:

يعد الاستبدال أحد عناصر السبك بين أجزاء النص الواحد، ونعني به: استبدال عنصر بآخر. ولقد حاول (هاليداي) و(رقية حسن) تحديد هذا المفهوم؛ بأن فرقا بين الاستبدال والحذف، بأن الاستبدال: هو تعويض عنصر بآخر أمّا الحذف فهو: نسيان عنصر وتغييبه، وكذا فرقا بين الاستبدال والإحالة، بأن الاستبدال: علاقة مرجعها الصيغ اللغوية من قِبل المفردات والمركبات، وهويتمّ في المستوى المعجمي النحوي، وأن الإحالة: هي علاقة معنوية تتم في المستوى الدلالي"[١]

وبالمثال يتضح الاستبدال، قال تعالى:" قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ "[٢].

التقدير: و" فئة كافرة" فاستبدل " أخرى" بـ" فئة" وهو استبدال في الاسم وقد يكون في الفعل مثل قوله تعالى: وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ"[٣] حيث استبدل تخرج

(١) نقلا عن كتاب" السبك في العربية المعاصرة بين المنطوق والمتكوب ص ٩٦.
(٢) سورة آل عمران الآية رقم ١٣.
(٣) سورة النمل الآية رقم ١٢.

بتدخل ، فأصل الكلام أدخل يدك في جيبك تدخل، وأخرجها تخرج، ولكنه من باب الاحتباك فزاد النصّ بالاستبدال تماسكًا وترابطًا حتى أننا لم نشعر باللفظ المُستَبْدَل.

رابعا" الحذف:

يُقصد بـ"الحذف " في الدراسات النصيّة إسقاط عنصر من العناصر بشرط ألّا يخلّ بالتماسك اللفظي والدلالي، ومن ثمّ فهو يختلف عن الإضمار، فالمحذوف ليس على نية التقدير، بينما المضمر في النفس على نية التقدير، حتى قيل:"المُقدَّر كالمذكور، الحذف: ويشمل حذف الكلمة، والجملة، ومتواليات من الجمل.

ولقد حاول (هاليداي) و(رقية حسن) التفريق بين الحذف والاستبدال مفرقين بينهما بأن الحذف استبدال بالصفر، بينما الاستبتدال يعتمد على وجود المُستَبْدَل منه سابقا للمُستَبْدَل. (١)

خامسا: السبك المعجمي: وقد أولاه اللغويون النصيون اهتمامًا خاصًّا، وميزوا بينه وبين سائر وسائل السبك؛ وذلك لأنّه يقوم على العلاقة المعجمية الخالصة بعيدًا عن العناصر النحوية، " وقد قسّم هؤلاء العلماء السبك المعجمي إلى قسمين رئيسين، هما: التكرار، والمصاحبة المعجمية، ثمّ فصّلوا الحديث عن هذين القسمين، فقسموا التكرار إلى:

التكرار التام.

التكرار الجزئي.

تكرار المعنى واللفظ مختلف: ويشمل الترادف وشبه الترادف.

وأمَّا المصاحبة: فهي كلمتان أو كلمات يُنظر إليها على أنّها وحدات معجمية مفردة، مستخدمة بحكم العادة في ترابط بعضها مع بعض في لغة ما؛ كما في اللغة

(١) نقلا عن السبك في العربية المعاصرة ص١٢١

الإنجليزية كلمة "أخضر" التي تصاحب "عشب"، وكلمة "حالك" التي تصاحب"ليل"، فكل كلمة في اللغة لها مدى معين في المصاحبة، "ويوسّع هاليداي ورقية حسن مفهوم المصاحبة ليندرج تحته التضاد"(١).

****

(١) السبك في العربية المعاصرة ص١٧٦، ١٧٧ بتصرف يسير.

المبحثُ الثاني: معجمُ المصطلحاتِ البديعيةِ النصيةِ.

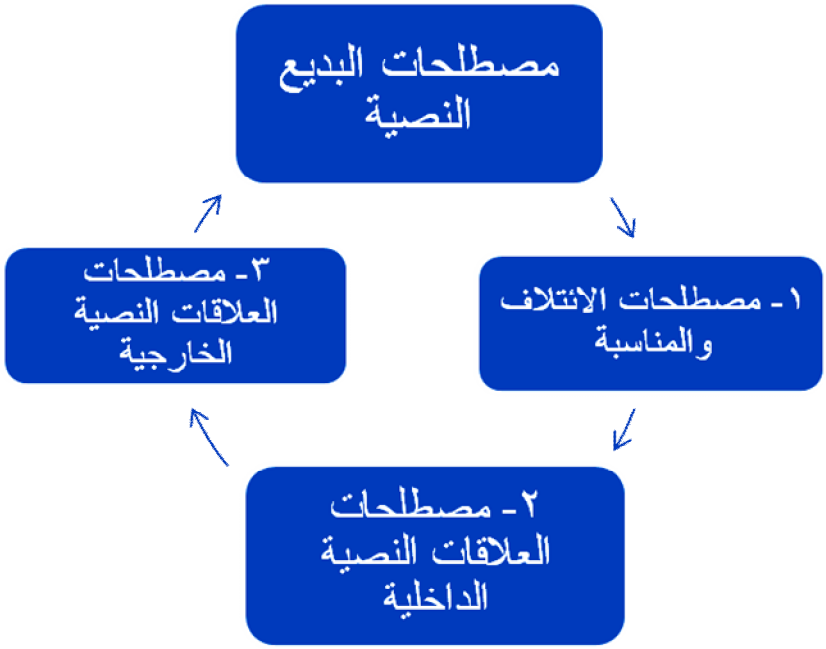

معجم المصطلحات البديعية النصية:

ليس الهدفُ هو حصرُ مسائلِ البديع؛ وإنَّما الهدفُ تنظيمُ مسائلِ البديعِ في صورة تكشف دورَه في التماسك النصيِّ، ويمكنُ الانطلاقُ منها إلى وضعِ معجمٍ للمصطلحاتِ البلاغيَّة النصيَّة، وقد اعتمدت في ذلك على المصطلحات الواردة في تحرير التحبير لابن أبي الإصبع، ويمكنُ تصنيفُ مسائلِ البديعِ إلى ثلاث أنظمة، طبقًا للتصنيف الآتي:

١- مصطلحاتٌ قائمةٌ على إحداثِ التماسكِ النصيِّ عن طريق الائتلاف والتناسب بين اللفظ والمعنى.

٢- مصطلحاتٌ قائمةٌ على إحداثِ التماسكِ النصيِّ من خلال إدراك العلاقات الداخليَّة بين النصِّ.

٣- مصطلحاتٌ قائمةٌ على إحداثِ التماسكِ النصيِّ من خلال إدراك العلاقاتِ الخارجيَّة للنصِ.

الأولى: مصطلحاتٌ قائمةٌ على إحداث التماسك النصي عن طريق الائتلاف والتناسب بين اللفظ والمعنى، وهي:

أولًا: ردُّ العجزِ على الصدرِ: وسماه بعضهم التصدير، يقول ابن أبي الأصبع: " وهو الذي سماه المتأخرون التصدير، وقد قسمه ابن المعتز ثلاثة أقسام: **الأول:** ما وافق آخرُ كلمة في البيت آخرَ كلمة في صدره، أو كانت مجانسة لها كقول الشاعر: (كامل):

يلفي إذا ما كان يوم عرمرم ... في جيش رأى لا يفل عرمرم

والثاني ما وافق آخرُ كلمة من البيت أولَ كلمة منه كقول الآخر: (طويل):

سريع إلى ابن العم يشتم عرضه ... وليس إلى داعي الندى بسريع

والثالث ما وافق آخرُ كلمة من البيت بعضَ كلماته في أي موضع كان، كقول الشاعر (طويل):

سقى الرمل جون مستهل غمامه ... وما ذاك إلا حب من حل بالرمل[١]

ولم يضع ابن المعتز لهذه الأقسام اسمًا يُعرف بعضُها من بعض، والذي يحسنُ أن نُسمي به القسمَ الأوَّلَ تصديرَ التقفية، والثاني تصديرَ الطرفين، والثالث تصديرَ الحشو، وقد وقع من التصدير في الكتاب العزيز قوله تعالى: " ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون " وقوله تعالى: " وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين " [٢]

(١) التحرير والتحبير ص١١٦

(٢) التحرير والتحبير ص١١٧

ولا يخفى أنَّ ردَّ العجز على الصدر أقربُ في الدلالة على المقصود من مصطلح التصدير؛ ففي رد آخرِ الكلام على أوله ما يفيد التماسك والترابط، حتى جعل آخره بسبب من أوله ومبنيًّا عليه، والأمثلة التي استشهد بها ابن أبي الأصبع خير شاهد على ذلك، وهو أنَّك شاهدت تكرارًا بين بعض المفردات، وكان لتكرار هذه المفردات دور في ربط النص ببعضه ببعض، كتكرار لفظ" عرمرم" وتكرار لفظ" سريع" وتكرار لفظ" الرمل" وتكرار لفظ" الاستهزاء" وتكرار لفظ" الإنزال" غير أن "التكرار" لم يكن مطلوبًا لذاته، وهو تأكيد المعنى فقط، وإنَّما قصد به تنامي المعاني وإحكامها واتساقها، ففي البيت الأول نلحظ الربط بين آخر البيت وآخر كلمة في صدر البيت الأول، وهي كلمة" عرمرم" وفي البيت الثاني نلحظ الربط بين آخر البيت وأوله وهي كلمة " سريع" على ما فيها من طباق السلب والإيجاب الذي أبرز المعنى ووضحه بعلاقة الضدية، وفي البيت الثالث ربط الشاعر بين عجز البيت وحشوه، وكذلك النظم العالي من القرآن الكريم، حيث رد عجز الآية الكريمة على أوله المؤكد بلفظ" قد" و" واو القسم"

وعلى الرغم من كون تسمية ابن المعتز (رد العجز على الصدر) هي الأقرب في الدلالة على المقصود من الدراسة، وهو التماسك النصي، فإن مفهوم التصدير لا يتعارض مع ما نحن بصدده، فتصدير التقفية يشعر بالتماسك والربط بين العروض والضرب، وكذلك تصدير الطرفين (الشطر الأول، والثاني من البيت الشعر) يوحي بالعلاقة الوثيقة بين أول البيت وآخره، وكذلك الأمر في تصدير الحشو في البيت الثالث والآية الكريمة، وأيًا ما يكن فإن فائدة هذه المصطلح البديعي ظاهرة واضحة في ربط الكلام ببعضه ببعض وجعل بعضه بسبب من بعض، وقد ذكر صاحب العمدة طرفا من فائدة في قوله:" وهو أن يرد أعجاز الكلام على صدوره، فيدل

بعضه على بعض" [1] ولا شيء أقرب في الدلالة على المقصود من ربط هذا المصطلح بعلم النص من قوله:" فيدل بعضه على بعض" وهو ما عرف عند النصيين بالحبك، فإذا أضفنا إلى ذلك قوله في التصريح بفائدته:" وفائده أنه يسهل استخراج قوافي الشعر– حيث يجعل الصدر دليلا على العجز– وتقتضيها الصنعة، ويكسب البيت الذي يكون فيه أبهة، ويكسوه رونقا وديباجة، ويزيد مائية وطلاوة"[2] فالبهاء والرونق والديباجة والماء والطلاوة عبارتٌ لو أمعنا النظر فيها انتهت بنا إلى التماسك اللفظي االانسجام الدلالي.

ثانيًا: تجاهل العارف: ويسمى أيضًا بـ" الإعنات" كماحكاه ابن أبي الإصبع، أو " التشكيك " كما عند ابن رشيق(٣)" **وسوق المعلوم مساق غيره**" كما عند السكاكي، أو " الاستفهام" كما عند ابن القيم(٤) مما يدل على أن هذا المصطلح يتسع لأغراض كثيرة لا تقف عند زيادة التأكيد كما قال أبو هلال العسكرى، أو الدلالة على قرب الشبهيين كما قال ابن رشيق، أو الإعنات أو الاستفهام أو غير ذلك ، فقد يساق المعلوم مساق المجهول لأغراض كثيرة تعدد بتعدد أحوال المتكلم، ومن هنا قال السعد التفتازانى:" وهذا أنموذج من نكت التجاهل وهى أكثر من يضبطها القلم".(٥)

وعلى الرغم من كثرة هذه النكت في هذا المصطلح البديعي إلا أننا نلحظ بوضح قدرته الفائقة على إحداث نوع من التماسك والترابط يختلف عن غيره من أنظمة الربط، وبيان ذلك أن مفهوم التشابه المبني على التجاهل في قول زهير"من الوافر":

---

(١) العمدة لابن رشيق– دار الجيل ــ بيروت ــ الطبعة الخامسة ــ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ٣/٢.

(٢) العمدة ٣/٢.

(٣) العمدة٦٦.

(٤ ينظر الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان لابن القيم الجوزية المتوفى ٧٥١هـ مكتبة المتنبى – ص١٥٨ــ١٦٠ بتصرف ــ

(٥) مختصر السعد على تلخيص المفتاح ضمن شروح التلخيص – ٤/ ٤٠٦ .

وما أدرى وسوف أخال أدرى * أقــوم آل حصن أم نـــساء

يجعل المتلقي مستحضرا طرفي الحديث (الرجال- النساء) ويربط أول الكلام بآخره، خاصة ما يستصحبه هذا الفن دائما من" أم" المنقطعة – كما في بيت زهيــر- التــي تربط أول الكلام بآخره، حيث الكلام على التصديق، أو ما يصاحبه مــن" أو" التــي تفيد الربط من خلال العطف.

كما أن أن دلالة الاستفهام – التي يفيدها هذا الفن البديعي- تستلزم أداة اســتفهام، ومستفهم، ومستفهم عنه، وكلها معان مترابطة لا يمكن الفصل بينها بــأجنبي، ومــن هنا لا يوصل بين السؤال وجوابه بفاصل أجنبي؛ لما بينهما من تماسك ذاتي، وكذلك مفهوم الإعنات، يستلزم مواجهة دفوع الخصم عن طريق الحجة من غير إرهاب أو عنف، ولا يتصور مخاصمة من طرف واحد، ولله در ابن رشيق حيــث يقــول: " وهو من مليح الشعر وطرف الكلام ، وله فى النفس حلاوة وحسن موقع بخلاف مــا للغلو والإغراق ، وفائدتة الدلالة على قرب الشبهين حتى لايفرق بينهمــا ولا يميــز أحدهما من الآخر" (١).

وإذا تتبعنا ورود هذا المصطلح تطبيقًا نبصر من طرف جلــى اتــصاله بالتماســك النصي، وليس فى ذلك هضم لقضية التحسين، وتقليلٌ لشأنها؛ وإنما هــدف الدراســة محاولة وضع هذا الفن فى مكانه الألصق والأدق ، خاصة ابــن المعتــز المتــوفى ٢٩٦هــ هو أول من ألف فى التصنيف البلاغي ، لم يعن بمناقــشة المــصطلحات وتحديد مدلولاتها، وإنما وجه عنايته إلى إثبات أن المحدثين من أمثال بشار بن بــرد المتوفى ١٦٧هــ وأبى نواس المتوفى١٩٩ هــ ومسلم بن الوليد المتوفى ٢١١هـــ ومن سلك مسلكهم ونحا نحوهم لم يسبقوا المتقدمين إلى شيء من أبــواب البــديع ،

(١) ينظر كتاب العمدة لابن رشيق صـــ٦٦ــ ٦٨ بتصرف.

يقول ابن المعتز:"وإنما غرضنا من هذا الكتاب تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شيء من أبواب البديع"(١).

ومن ثم فالبديع عند ابن المعتز ليس البديع المتعارف عليه عند المتأخرين وهو التحسيين والتزيين ، وإنما البديع عنده هو كل فن مستطرف أو الرائع من القول ، ومن ثم شمل البديع عنده التجنيس والاستعارة والمطابقة ورد الأعجاز على الصدور والمذهب الكلامي، وأما القسم الثانى من كتابه فجعل ما احتواه من موضوعات تحت عنوان "محاسن الكلام" وأباح لغيره أن يسميها بديعاً، وعلى ذلك فمن حق هذا الفن أن يأخذ حظه من التصنيف البلاغى الصحيح ، فعلى أى أساس تم تصنيفه فى علم البديع المتعارف عليه حالياً ، وتمّ وضع الاستعارة فى علم البيان؟(٢).

ثالثا: التشبيه: يعد التشبيه وسيلة من وسائل التماسك؛ حيث تقتضي" أداة التشبيه" مشبها ومشبها به، فـ"كأنّ" وغيرها –من أدوات التشبيه– بمجرد ما تلوح في العبارة تحدث تماسكًا وترابطًا، فهي من أدوات الاقتران، ومن ثم عرفه ابن أبي الأصبع بقوله: " التشبيه عبارة عن العقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر في حال أو عقد، هكذا حد الرماني، وهذا هو التشبيه العام الذي يدخل تحته التشبيه البليغ وغيره، ثم إن الرماني بعد حده قال: والتشبيه تشبيهان: تشبيه شيئين متفقين بأنفسهما كتشبيه الجوهر بالجوهر، كقولك: ماء النيل مثل ماء الفرات، وتشبيه العرض بالعرض كقولك: حمرة الخد كحمرة الورد، وتشبيه الجسم بالجسم كقولك: الزبرجد مثل الزمرد، وتشبيه شيئين مختلفين بالذات يجمعهما معنى مشترك بينهما: كقولك،

(١) البديع لابن المعتز صـ ٣ الطبعة الثانية ـ تعليق / إغناطيوس كراتشقوفسيكى ـ دار المسيرة ـ الطبعة الثانية ـ ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

(٢) ينظر في ذلك " سوق المعلوم مساق غيره بين علمي المعاني والبيان رؤية بلاغية" للباحث– مجلة قطاع اللغة العربية– جامعة الأزهر– العدد الرابع –٢٠٠٩/ ٢٠١٠.

حاتم كالغمام، وعنترة كالضرغام، والتشبيه المتفق تشبيه حقيقة، والتشبيه المختلف تشبيه مجاز للمبالغة(١).

وسواء أكان مصطلح " التشبيه" من علم البيان كما عليه أغلب العلماء، أم كان من مصطلحات علم البديع، كما أورده ابن أبي الإصبع في نصه السابق، فإن الذي يعنينا هو بناء هذا المصطلح على فكرة الاقتران بين طرفي التشبيه، فـ"كأنّ" بمجرد ما تلوح في العبارة تقتضي مشبهاً ومشبهاً به، وإيلاء الفعل همزة الاستفهام يدل على أنه مشكوك فيه بصرف النظر عن نوع الفعل، وإيلاء الاسم همزة الاستفهام دليل على أنّ الفعل واقع ، وأنّ السؤال عن الفاعل، بصرف النظر عن طبيعة الفاعل، وهكذا لكل بنية نحوية حالات توجبها ومعان تستدعيها وكما يقول عبد القاهر:" هذه مسائل لا يستطيع أحد أن يمتنع من التفرقة بين تقديم ما قُدِّم فيها وترك تقديمه"(٢)

ومع أن لكل بنية نحوية حالات تقتضيها ومعان تستدعيها ، إلا أن هذه المعاني وتلك الحالات تحتاج إلى إعمال فكر وتدبر وروية.

رابعا: صحة التقسيم: يعد هذا المصطلح من التماسك الدلالي، وهو ما يعرف بـ" الحبك" وبيان ذلك أن تفصيل المجمل يحدث نوعًا من العلاقات الداخلية داخل النص، سواء أكان المراد به علاقة الجزء بالكل، أم علاقة الفرع بالأصل أم علاقة الخاص بالعام؟ فكلها من العلاقات النصية التي تحدث انسجامًا واتساقًا وتناميًا في الدلالة النصيَّة، وهو ما يجعل الكلام مترابطًا متماسكًا، فضلًا عن ذلك ما يكون بين الأقسام الفرعية من تقابلٍ أو تضادٍ يزيد المعنى وضوحًا واستيعابًا، ويكشف عن أسرار كامنة وراء هذا الفن لا نجدها لو ذكر كل لفظ على حدا، يقول ابن أي الإصبع:" وصحة الأقسام عبارة عن استيفاء المتكلم أقسام المعنى الذي هو آخذ فيه، بحيث لا يغادر منه شيئاً، ومثال ذلك قوله تعلى: " هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً " وليس

(١) التحرير والتحبير ص١٥٩.

(٢) دلائل ص ١١١ – ١٢٨ بتصرف.

في رؤية البرق إلا الخوف من الصواعق، والطمع في الأمطار، ولا ثالث لهذين القسمين.... ومما جاءت صحة الأقسام فيه مدمجة في المقابلة من الكتاب العزيز قوله سبحانه: " فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون، وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون " وقد اعترضت المطابقة بين القسمين المتقابلين واستوعبت أقسام الأوقات من طرفي كل يوم ووسطه.

... ومثال صحة الأقسام من الكتاب العزيز أيضاً قوله: " الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم " فلم يترك سبحانه قسماً من أقسام" (١).

خامسا: المقابة والمطابقة: وهما من التماسك الدلالي، ويسميهما علماء النص بالسبك المعجمي، ويشمل الترادف، والتكرار الكلي والجزئي، والمصاحبة والمجاورة، وقد أولى اللغويون النصيون السبك المعجمي اهتمامًا خاصًا، وميزوا بينه وبين سائر وسائل السبك، وذلك لأنه يقوم على العلاقة المعجمية الخالصة بعيدًا عن العناصر النحوية، وقد قسّم هؤلاء العلماء السبك المعجمي إلى قسمين رئيسين هما: التكرار، والمصاحبة المعجمية.

وعندنا في العربية نلحظ المصاحبة في بعض المفردات ومنها(ليل ونهار) و(ولد وبنت) و(سماء وأرض)، و(أبيض وأسود) ولا شك أن الاقتران المعجمي بين دلالة هذه الكلمات يعد وسيلة من وسائل التماسك في النص، وهذا المعنى من التماسك أشار إليه ابن أبي الأصبع قائلا:" وصحة المقابلات عبارة عن توخي المتكلم ترتيب الكلام على ما ينبغي، فإذا أتى بأشياء في صدر كلامه أتى بأضدادها في عجزه على الترتيب، بحيث يقابل الأول بالأول، والثاني بالثاني لا يخرم من ذلك شيء... ، ومتى أخل بالترتيب كان الكلام فاسد المقابلة، وقد تكون المقابلة بغير الأضداد"(٢).

(١) التحرير والتحبير ص١٧٤، ١٧٥.

(٢) التحرير والتحبير ص١٧٩.

وقد خلط ابن أبي الأصبع بين المقابلة واللف والنشر، حيث ذكر شواهد من اللف والنشر، وعدها من المقابلة، ومن ذلك قوله:" ومن معجز هذا الباب قوله تعالى: " ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله " فانظر إلى مجيء الليل والنهار في صدر الكلام، ثم قابلهما في عجز الكلام بضدين، وهما السكون والحركة على الترتيب" (١).

وعلى الرغم من الفرق الدقيق بين المقابلة واللف والنشر في علم البديع، فإن الدراسات النصية لا تفرق بينهما في عمليتى الترابط والتماسك، وبيان ذلك أنهم يعدونهما من السبك االناتج عن المصاحبة المعجمية، الذي تصاحب فيه الكلمة اختها لما بينهما من علاقة التناسب كمراعاة النظير التي تعني : الجمع بين الشيء وما يناسبه، أو المقابلة التي تعنى الجمع بين أشياء متناسبة لا على سبيل التضاد، أو لما بينهما من علاقة التضاد التي تعني الجمع بين الشيء وما يقابله على سبيل التضاد أو التناقض، وعلى ذلك فالمصاحبة: هي كلمتان أو كلمات يُنظر إليها على أنّها وحدات معجمية مفردة ، مستخدمة بحكم العادة في ترابط بعضها مع بعض في لغة ما؛ كما في اللغة الإنجليزية كلمة " أخضر" التي تصاحب " عشب" وكلمة " حالك" التي تصاحب" ليل" فكل كلمة في اللغة لها مدى معين في المصاحبة" ويوسّع هاليداي ورقية حسن مفهوم المصاحبة ليندرج تحته التضاد"(٢)

سادسا: التفسير والتبيين: وهما من المصطلحات النصية المهمة في فهم الرسالة التي يتضمنها النص، فالنص كما هو معلوم عبارة عن حدث تواصلي بين مرسل ومتلق ولابد أن يشتمل هذا الحدث على رسالة، وكل ما يساعد على إبراز المعنى الذي تضمنه النصّ فهو من المعايير النصية المندرجة تحت معيار (التماسك النصي)، فضلًا عما يسهم به مصطلح(التفسير والتبيين) من بيان المقصود من

(١) التحرير والتحبير ص١٧٩.

(٢) السبك في العربية المعاصرة ص١٧٦، ١٧٧ بتصرف يسير.

النصِّ، وهو ما عبر عنه دي بوجراند بـــ" المقصدية" وعرفه ابـــن أبـــي الأصـــبع بقوله:" وهو أن يأتي المتكلم في أول الكلام، أو الشاعر في بيت من الشعر بمعنى لا يستقل الفهم بمعرفة فحواه دون أن يفسر، إما في البيت الآخر، أو في بقية البيـــت إن كان الكلام الذي يحتاج إلى التفسير في أوله، ووقوع التفسير من الكلام على أنحـــاء: بعد الشرط، وما هو في معناه، وبعد الجار والمجرور، وبعد المبتدإ الـــذي التفـــسير خبره. فمثال ما وقع منه بعد الحروف المتضمنة معنى الشرط قول الفرزدق طويل:

لقد جئت قوما لو لجأت إليهم ... طريد دم أو حاملا ثقل مغرم

لألفيت منهم معطيا ومطاعنا ... وراءك شزرا بالوشيج المقوم

ومثال ما جاء بعد الجار والمجرور قول الحسين بن مطير الأسدي كامل:

وله بلا حزن ولا بمسرة ... ضحك يواصل بينه وبكاء[1].

فكلمتا التفسير والتبيين توحيان بمبهم قد تقدم، يحتاج هذا المبهم إلى إيضاح وبيـــان، وهو ما يعرف في باب الإطناب بـــ بالبيان بعد الإبهام، ولا يعنينا اختلاف الأســـماء في شيء وكون المصطلح من علم المعاني أم من علـــم البـــديع مـــا دام المـــسمى والمدلول واحدًا، وإنما الذي يعنينا هو وظيفة هذا المصطلح في الربط بـــين الكـــلام بعضه ببعض، من خلال أسلوب الشرط، ومن المعلوم أن أسلوب الشرط من أساليب الاقتران التي تقتضي أداة شرط، وفعل شرط، وجواب شرط ، ولذا بمجرد ما يلـــوح في العبارة يؤدي إلى تماسكها وترابطها اللفظي، فإذا كان معنى الجزاء مترتب على معنى الشرط، ازدات العبارة اتساقًا وانسجامًا دلاليًا، وقد نظر عبـــد القـــاهر لأدوات الشرط نظرة تختلف عن غيره من النحويين، حيث يُعنى النحويون– دائما– بالبحـــث في استيفاء المكونات النحوية من حيث أداة الشرط، وفعل الشرط، وجوابه، وطبيعـــة الجزم، وهل حروف الشرط بسيطة أم مركبة؟ وغير ذلك مما لا يتجـــاوز مفهـــوم

(١) التحرير والتحبير ص١٨٥، ١٨٦.

الجملة، بينما تجاوز عبد القاهر هذا المفهوم الضيق إلى رحاب أوسع، وفضاء أرحب وهو"بلاغة النص" أملته علي عبد القاهر قضية " النظم " التي لا ترى في الألفاظ – من حيث هي أصوات مسموعة – أي قيمة ما لم تتلاقَ دلالتها وتتسق معانيها، ومن ثمّ كان لأداة الشرط في البلاغة العربية دلالات توجبها ومعان تستدعيها؛ حيث تتكون جملة الشرط من أدة الشرط، وفعل الشرط، وجواب الشرط، وهو ما يعرف بالتلازم التركيبي؛ فيلزم من وجودِ أداةِ الشرطِ فعلَ الشرط وجوابه، وهو ما يُحدِث في النص خصوصية تركيبية، فكما أنّ الابتداء بالاسم يقتضي خبراً، بصرف النظر عن نوع الخبر، والابتداء بالفعل يقتضي فاعلًا ومفعولًا – إن كان متعديًا– ، وحرف الجر يقتضي مجرورًا، "وكأنّ" بمجرد ما تلوح في العبارة تقتضي مشبهًا ومشبهًا به، فكذلك أداة الشرط تقتضي فعلَ الشرط وجوابه. ومن ثمّ استفاد عبد القاهر من التلازم التركيبي لأدوات الشرط في معالجته البلاغية، وعمل على توظيف تلك الأدوات في ربط الكلام بعضه ببعض، مما يسهم في بيان المحتوى الكلي للنصّ، بل جعله أصلا يقاس عليه، فنراه يقول:"... وينبغي أن يُجعل ما يُصنع في الشرط والجزاء من هذا المعنى أصلا يُعتبر به[1]

سابعا: الائتلاف في اللفظ للمعنى: وهو من تمام التماسك والترابط في النصّ؛ لما بين اللفظ والمعنى من تناسب؛ فترتب فيه الألفاظ في النطق حسب ترتب المعاني في النفس، فلا تجد لفظة قلقة في سياقها نابية عن أخواتها، وإنما تتلاقي دلالتها مع صاحبتها ولاحقتها، فلا تدرى إلم ترجع المزية والحسن أإلى اللفظ أم إلى المعنى؟ أم إلى الاثنين معًا؟، وهذا النوع من الترابط – على حد تعبير عبد القاهر– من النظم العالي الذي يصدر عن فكر وروية، ويؤثر فيه المتكلم كلمة على أخرى، و يكون فيه الناظم كالباني، ويصبح النص كالنسيج الذي أحكمت صناعته، يقول عبد القاهر:" وقوله:" واعلم أنّ ممّا هو أصل في أن يدقّ النظر ويغمض المسلك في توخي

---

(١) سورة النساء الآية ١١٢

المعاني التي عرفت – أن تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض ويشتد ارتباط ثانٍ منها بأولَ، وأن يحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعًا واحدًا، وأن يكون حالك فيها حال الباني يضع بيمينه هاهنا في حال ما يضع بيساره هناك، نعم وفي حال ما يبصر مكان ثالث ورابع يضعها بعد الأولين، وليس لما شأنه أن يجيء على هذا الوصف حدٌ يحصره وقانونٌ يحيط به فإنه يجيء على وجوه شتى وأنحاء مختلفة"(١)، وقوله:"ومعلوم أن سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة، وأن سبيل المعنى الذي يعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه"(٢).

ولنستأنس بكلام ابن أبي الإصبع:" والمراد بـ" ائتلاف اللفظ والمعنى: أن تكون ألفاظ المعنى المطلوب ليس فيها لفظة غير لائقة بذلك المعنى، ومثال ذلك قوله سبحانه: " إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب " فعدل سبحانه عن الطين الذي أخبر في كثير من مواضع الكتاب العزيز أنه خلق آدم منه، منها قوله تعالى: " إني خالق بشراً من طين " وقوله سبحانه حكاية عن إبليس: " خلقتني من نار وخلقته من طين " فعدل عز وجل. وهو أعلم. عن ذكر الطين الذي هو مجموع التراب والماء إلى ذكر مجرد التراب، لأنه أدنى العنصرين، وأكثفهما لما كان المقصود مقابلة من ادعى في المسيح الإلهية بما يصغر أمر خلقه عند من ادعى ذلك، فلهذا كان الإيتان بلفظة التراب أمتن بالمعنى من غيرها من العناصر ولو كان موضعه غيره لكان اللفظ غير مؤتلف بالمعنى المقصود (٣).

---

(١) الدلائل ص٩٣.

(٢) الدلائل ص٢٥٤، وينظر كذلك عناصر التماسك النصي بين نظرية النظم وعلم النص للباحث– مجلة كلية البنات الأزهرية بالعاشر من رمضان– العدد الأول– ص١٣٥ وما بعدها.

(٣) التحرير والتحبير ص١٩٤.

ثامنا: الإرداف والتتبيع: يُبنى هذا المصطلحُ على فكرة التلازم والاستتباع؛ بمعنى أنْ تستتبعَ لفظةٌ لفظةً أخرى، تكون الأخيرة كالردف لها، وهو قريب من الكناية، غير أن الكناية تكون في التركيب كله، والإرداف والتتبيع يكون في المفردة الواحدة، ولذا " عده قدامة – أيضاً– من ائتلاف اللفظ مع المعنى، وسماه هذه التسمية، وشرح تسميته بأن قال: هو أن يريد المتكلمُ معنى فلا يعبرُ عنه بلفظه الموضوع له، ويعبرُ عنه بلفظ هو ردفُه وتابعُه أي قريبٌ من لفظه قربَ الرديف من الردف، مثل قوله تعالى: " واستوت على الجودي " فإنَّ حقيقة ذلك "وجلست" على هذا المكان، فعدل عن لفظ المعنى الخاص به إلى لفظ هو ردفه، وإنَّما عدل عن لفظ الحقيقة لما في الاستواء الذي هو لفظ الإرداف من الإشعار بجلوس متمكنٍ لا زيغَ فيه ولا ميلَ، وهذا لا يحصل من قولك" "جلستُ" أو "قعدتُ" أو غير ذلك من ألفاظ الحقيقة، إذ كان المراد –والله أعلم– الإخبار بنفي الأسباب الموجبةَ خوفَ أهلِ السفينة من السفينة في حالتي حركتها وسكونها، وذلك لا يحصل حتى يفهم السامع أنها جلستْ جلوسًا متمكنًا لا ميل فيه يوجب الخوف، ولا يحصل إلا بلفظ الاستواء دون غيره(١).

تاسعا: ائتلاف اللفظ مع الوزن: من أنظمة الربط التي انفردتْ بها اللغةُ العربيةُ ما روعي فيه جانب الوزن، ولا يكون إلَّا في الشعر، وتناسبُ اللفظِ مع الوزنِ يحدثُ تماسكًا يتفوق على التماسك الذي يكون في النثر، وما ذلك إلَّا لكون الشاعر مقيدًا بالوزن، والمراد بائتلاف اللفظ مع الوزن:" أن تكون الأسماء والأفعال تامة، لم يضطر الشاعر الوزن إلى نقصها عن البقية، ولا إلى الزيادة فيها، ولا يقدِّم منها المؤخر، ولا يؤخِّر منها المقدم، ولا يدخل فيها ما يلتبس به المعنى، ولم يأت قدامة بأمثلة في هذا الباب، ولم يذكر غير ذلك بل قال أعني قدامة: كل شعر سليم من هذا الذي قدمت ذكره هو مثال لهذا الباب(٢).

---

(١) التحرير والتحبير ص٢٠٧.

(٢) التحرير والتحبير ص٢٢١.

وعند التحقيق نجد مراعاة الوزن والقافية، أمورًا في صميم التماسك والترابط، ولكنه تماسكٌ وترابطٌ من نوع خاص، يتطابق فيه النغم المتمثل مع الوزن، وتلاحم أجزاء البيت المتمثل مع القافية.

وقد فرَّق المرزوقي بين مبنى النثر ومبنى الشعر، وهو اختلافٌ يتعلق فيما نحن بصدده؛ حيث جوز في النثر ما لم يجوزه في الشعر مراعاةً للوزن والقافية، فرأى أن النثر" واضح المنهج، سهل المعنى، متسع الباع، واسع النطاق، تدلّ لوائحه على حقائقه، وظواهره على بواطنه(١)، بخلاف مبنى الشعر، فهو على"العكس من جميع ذلك؛ لأنه مبنيٌّ على أوزان مقدرة، وحدود مقسمة، وقوافٍ يساق ما قبلها إليها مهيأة، وعلى أن يقوم كلّ بيت بنفسه غير مفتقر إلى غيره إلا ما يكون مضمنًا بأخيه، وهو عيب فيه، فلما كان مداه لا يمتدُّ بأكثرَ من عروضه وضربه، وكلاهما قليل، وكان الشاعر يعمل قصيدته بيتًا بيتًا، وكلّ بيت يتقاضاه بالاتِّحاد، وجب أن يكون الفضل في أكثر الأحوال في المعنى(٢)،حتى وصل إلى إقرار حكم عام وهو " كلّ ما يحمد في الترسل ويختار، يذم في الشعر ويرفض.

ويفهم من هذا أن وحدة البيت- التي عابها النصيون- أساسٌ في القصيدة لكونها أوزانًا مقدرة، وحدودًا مقسمة، وقوافيَ يساق ما قبلها إليها مهيأة، بخلاف النثر الذي لا يتجزأ، فهو كلام متسع الباع، واسع النطاق، تدلّ لوائحه على حقائقه، وظواهره على بواطنه، على حد تعبير المرزباني السابق.

ومن هنا ظهر في الشعر ما يُعرف بـ" التصريع " و" الترصيع" و" التوشيح" و" الإرصاد" و" الإيغال" و" التصدير... وغير ذلك مما له تعلقٌ بالوزن والقافية، وليس

(١) ينظر شرح ديوان الحماسة – تأليف أبي علي المرزوقي- تحقيق: غريد الشيخ- الجزء الأول – ص١٧.

(٢) ينظر شرح ديوان الحماسة – تأليف أبي علي المرزوقي- تحقيق غريد الشيخ- الجزء الأول – ص١٦، ما بعدها.

من غايتنا- ولا غاية اللسانيات النصية الاعتراض على هذين اللونين من المعرفة (الوزن والقافية) وارتباطهما بالفن الشعري، وكما يقول الدكتور بدوي طبانة: "فإن النظرة العلمية تميل إلى تعدد جبهات المعرفة، وتخصيص كل جبهة بلون خاص من ألوانها، ولكن الذي يمكن أن يقال هو: أن هذين العلمين ينظران في الصحة من حيث استقامة النغم في الوزن، ووحدة القافية، وهما لونان من ألوان التناسب والتطابق، فيدخلان فيما نحن فيه من البحث في جمالات المطابقة"(١).

ويدخل في هذا أيضا ائتلاف المعنى مع الوزن: وهو أن تأتي المعاني في الشعر على صحتها، لا يضطر الشاعر الوزن إلى قلبها عن وجهها، ولا خروجها عن صحتها،(٢). وهو من التماسك الدلالي القائم على استقلال كل بيت بمعناه، ومن ثم تتفاوت الأبيات في عمود البلاغة ، وقد أشار إلى ذلك أبو العباس المعروف بثعلب(٢٩١هـ) في كتابه "قواعد الشعر" الذي عني فيه بذكر القواعد التي يجب على الشاعر الالتزامُ بها حتّى لا يقع فريسة للعيوب المخلة بالشعر، وعدَّ منها البيتَ الذي لا يظهر معناه إلّا مع عجزه في عِداد الأبياتِ البعيدة عن البلاغة، وسمّاها الأبياتَ المُرَجَلةَ؛ إشارةً إلى ترهلها وانصرامها وتفككها، بينما الأبياتُ التي تستقل أجزاؤها هي من البلاغة على مراتب؛ بحسب قُرب المعنى من القافية أوبُعده، فكلّما استقل المعنى قَبلَ وُرود القافية كان أبلغَ، لذا تنوعتْ الأبياتُ عنده إلى الأبياتِ الغرِّ، والأبياتِ المُحَجَّلة، والأبيات الموضّحة، والأبيات المُرَجَّلة، وكلُّها بليغةٌ-على تفاوت مراتبها- ما عدا النوع المُرَجَّل الذي لا يكون تمام معناه إلا مع عجزه، ومن ثمَّ فالأبياتُ عنده بهذا المقياس أربعة، وهي على حد تعبيره" **الأبيات الغُرُّ**: واحدها أغرُّ، وهو ما نَجَمَ من صدر البيت بتمام معناه، دون عجزه، وكان لو طُرِح آخره لأغنى

(١) البيان العربي" دراسة في تطور الفكرة العربية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى" دكتور/ بدوي طبانة- الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية- الطبعة السادسةص٤٢٠، ٤٢١.

(٢) التحرير والتحبير ص٢٢٣.

أوّلُه بوضوح دلالته...لأنَّ سبيلَ المتكلمِ الإفهامُ، وبغيةَ المُكَلَّمِ الاستفهامُ، فأخفُّ الكلام على الناطق مئونةً، وأسهله على السامع محملاً، ما فُهِمَ عن ابتدائه مرادُ قائله، وأبان قليلُه، ووضح دليله؛ فقد وصفتْ العربُ الإيجــازَ فقرظتــهُ، وذكــرتْ الاختــصارَ ففضّلتهُ، فقالوا: لمحةٌ دالةٌ،لا تخطئُ ولا تبطئُ، ووَحْيٌ صرّح عن ضــمير، وأوْمَــأ فأغنى. وهذه الطبقة من الاختيار، والنوع من الأشعار، كتشبيه الخنــساء ومجنــون ليلى.

قالت الخنساء:

وإن صخرا لتأتم الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار

...**الأبيات المُحَجَّلة:** ما نُتِجَ قافية البيت عن عروضه، وأبانَ عجزُه بغيةَ قائله، وكان كتحجيل الخيل، والنورِ يعقب الليل...قال امرؤ القيس:

من ذكر ليلى وأين ليلى ... وخير مارمت لا ينال

...**الأبيات الموضحة:** وهي ما استقلت أجزاؤها، وتعاضــدت وصــولها، وكثــرت فقرُها، واعتدلت فصولها ... ومن ذلك قول قول امرئ القيس:

مكر مفر مقبل مدبر معا ... كجلمود صخر حطه السيل من عل

وقول الأعشى:

طويل العماد رفيع الوسا ... د يحمي المضاف ويعطي الفقيرا

...**الأبيات المرجلة:** التي يكملُ معنى كلِّ بيتٍ منها بتمامه، ولا ينفصلُ الكــلامُ منــه ببعضٍ يحسن الوقوفُ عليه غير قافيته، فهو أبعدُها من عمود البلاغة، وأذمُّها عنــد أهل الرواية؛ إذ كان فهمُ الابتداء مقروناً بآخره، وصدرُه منوطاً بعجزه، فلو طرحت قافيةُ البيت وجبتْ استحالتُه، ونسب إلى التخليط قائلُه؛ كما قال الطائي:

عدلا شبيها بالجنون كأنما ... قرأت به الورهاء شطر كتاب

وقال امرؤ القيس:

إذا المرء لم يخزن عليه لسانه ... فليس على شيء سواه بخزان

وقال النابغة:

هذا الثناء فإن تسمع لقائله ... فما عرضت أبيت اللعن بالصفد"[١]

وقد نوقش مبدأ وحدة البيت في دراسة مستقلة بعنوان: وحدة البيت بين البلاغة العربية ولسانيات النص، وعولجت هذه القضية بما يؤكد أن التزام التماسك والائتلاف بين الوزن والمعنى الذي نص عليه الأدباء و البلاغيون في التراث البلاغي إنما هو بعد مراعاة التماسك الكلي للنص، بحيث يكون كيانا واحدا ونسيجا محكما.

عاشرا: التوشيح: يتشابه مصطلح " التوشيح" مع ائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت، ومن هنا عرفه قدامة بقوله:" هو أن يكون في أول البيت معنى إذا علم علمت منه قافية البيت، بشرط أن يكون المعنى المتقدم بلفظه من جنس معنى القافية بلفظه، أو من لوازم لفظه. ومن ذلك في الكتاب العزيز قوله تعالى: " إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين "، فإن معنى اصطفاء المذكورين تعلم منه الفاصلة، إذ المذكورون نوع من جنس العالمين، وكقوله تعالى: " وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون "، فإنه من كان حافظاً لهذه السورة، متفطناً إلى أن مقاطع فواصلها النون المردفة، وسمع في صدر هذه الآية " وآية لهم الليل نسلخ منه النهار " علم أن الفاصلة " مظلمون "، فإن من انسلخ النهار عن ليله أظلم ما دامت تلك الحال[٢].

(١) قواعد الشعر- ص ٦٦- ٨٤ بتصرف.

(٢) التحرير والتحبير ص٢٢٨.

ولا يخفي ما في هذا المصطلح من تماسك دلالي بين أجزاء الكلام سواء أكان شعرًا أم نثرًا، حيث تسلم المعاني بعضها إلى بعض، ويجعل بعضها بسبب من بعض، ليس في محيط البيت الواحد، بل في محيط النص بأكمله، وإنما قصره قدامة على البيت بمفرده، لما هو معلوم أن كل بيت من أبيات القصيدة يمثل وحدة جزئية خاضعة للوزن والقافية، تتعاور هذه الوحدة مع غيرها حتى تكون القصيدة كلًا يستوعب جميع أجزائه، وليس كما زعم صلاح فضل من أن البلاغة العربية لا تعرف التماسك والترابط الكلي للنص، وإنما غاية ما تسعى إليه هو وحدة البيت، بمعنى أن يكون البيت على حد تعبيره :" وحدةً نحويةً لا ينبغي أن تظلَّ مفتوحة بأيِّ شكل على البيت المجاور لها. ... حيث كان يعتبر البيت الشعري هو الوحدة الأساسية المكتملة، والقافية بابها الموصد، على أن تتساوى الأبيات في نهاية المطاف، لكن لكل بيت كينونته وأسراره، وهو مستقل بذاته، وقابل – فحسب – لحسن الجوار مع غيره، لكنه لا يكاد يكون معه أسرة متمازجة، ومن هنا فإنَّ كثيرًا من الأشكال البلاغية – إن لم تكن كلها تقريبًا – تنبثق عن هذه البنية المحددة، فمعظم ظواهر البديع– من طباق وجناس ورد للعجز على الصدر وغيرها– إنما هي استثمار جمالي لهذه الوحدة المنغلقة نحويًّا ببابها الموصد. أي إنَّه كان لابدَّ من الاكتفاء الذاتي لكل بيت، وعلى جميع التنويعات الموسيقية والدلالية أن تحدث داخل حدود البيت، كي لا تتسرب أسراره إلى الخارج"(١).

والحق أن ائتلاف اللفظ مع الوزن، وائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت، ومنه التوشيح لا يسعى إلى وحدة البيت وعزله عن النص، وإنَّما تهدف هذه المصطلحات إلى نقل فكرة موجزة أو رسالة محددة، يسهل تناقلها وروايتها، ومن المعايير المستقرة في النقد " أنَّ دراسة الفنون الأدبية من خلال تدرج المعني أصدق

(١) ينظر بلاغة الخطاب وعلم النص– تأليف: صلاح فضل– الناشر: عالم المعرفة– المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب– الكويت– ١٩٩٢– ص٢٦٣– ٢٦٦ بتصرف.

من دراستها من خلال الأغراض والطبقات؛ لأنَّ المعانيَ صورةٌ وجدانيةٌ لصاحب التجربة الإنسانية التي تنشأ في بيئةٍ هي صادقة في بيئتها، في حين أنَّها لو قِيستْ في بيئة أخرى لكانت مختلفة، ومن هنا فإنَّ نظرية المعنى في البلاغة العربية تنادي بدراسة الأدب العربي وفنونه وتراكيبه وأمثلته وشواهده من خلال نموِّ فكرة المعنى؛ حتى تستقيم الأحكام وتصح النتائج"(١)

الحادي عشر: الاحتراس والتكميل والتتميم:

وكلها من المصطلحات التي تفيد تماسكًا دلاليًا، سواء عن طريق تناسب المعاني، أو استيعابها، والحرص على ما يكملها، أو التفطن لمواقع الخلل فيها، ولا يحتاج المبدع عند بناء النصوص وإنتاجها أكثر من الإحاطة بهذه الفنون، التي تعد من أنظمة الربط الدلالية، التي لا تقل شأنا عن أنظمة الربط اللفظية؛ وبيان ذلك أن الاحتراس: " هو أن يأتي المتكلم بمعنى يتوجه عليه دخل، فيفطن له، فيأتي بما يخلصه من ذلك، والفرق بين الاحتراس، والتكميل، والتتميم أن المعنى قبل التكميل صحيح تام، ثم يأتي التكميل بزيادة يكمل بها حسنه إما بفن زائد أو بمعنى، والتتميم يأتي ليتمم نقص المعنى ونقص الوزن معاً والاحتراس لاحتمال دخل على المعنى، وإن كان تاماً كاملاً، ووزن الكلام صحيحاً، وقد جعل ابن رشيق الاحتراس نوعاً من التتميم، وسوى بينهما، وقد ظهر الفرق بينهما، فجعلهما في باب واحد غير سائغ"(٢).

الثاني عشر: الترديد: يتشابه مصطلح الترديد مع بعض عناصر التماسك النصية كالإحالة، والتكرار، ومن ثم كان له مزيدُ اختصاصٍ، فتارة يعمل على التماسك اللفظ، وذلك إذا رددت اللفظة كما هي؛ بمعنى " أن يعلق المتكلم لفظة من الكلام بمعنى، ثم يردها بعينها، ويعلقها بمعنى آخر، كقوله سبحانه وتعالى: " حتى يؤتى

(١) المعنى بين الأدب والبلاغة. تأليف: دكتور: محمد بركات حمدي- دار النشر- عمان- الأردن-١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ص ٤٥.

(٢) التحرير والتحبير ص٢٤٥.

مثل ما أوتي رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالاته " فاسم الجلالة الأوّل مضاف إليه، والثاني مبتدأ به.

ولا يخفى إن إعادة اللفظ كما هو من عناصر التماسك والترابط الذي طريقه السبك المعجمي، وقد اصطُلح –قديمًا وحديثًا–على تلك الإعادة بالتكرار اللفظي، غير أنَّ البلاغة العربية جعلت الغاية منه التأكيد، بينما ذهب علماءُ النصِّ إلى أنَّ الغاية منه هي التماسك اللفظي، وبيان ذلك في النصوص السابقة، أن لفظ الجلالة" الله" ردِّد مرتين في الآية الكريمة؛ مرةً على سبيل الجر بالتعظيم، ومرةً على سبيل الرفع على التعظيم، ولم يُكتفَ بالإحالة إليه عن طريق الضمير مثلًا، فيقال: وهو أعلم حيث يجعل رسالته، أو الإحالة إليه عن طريق الاسم الموصول فيقال مثلا:" الذي يعلم حيث يجعل رسالته" وإنما كرَّر اللفظة وردَّدها لتقرع الأسماع وتغرس المهابة في القلوب، ولا يخفى أن الإحالة بالضمير والأسماء الموصول وأسماء الإشارة لا تعمل في التفس عمل التصريح والمكاشفة بالاسم الظاهر إذا تتطلبه السياق واقتضاه المقام، كما أن إعادة كلمة "يعلمون" في الآية الكريمة بلفظها يعد من التكرار التام للبنية المعجمية، ولا تقوم أي لفظة تشتمل على معناها مقامها في التماسك اللفظي، فلو وضعنا" يعرفون" أو " يدركون" أو" يفهمون" أو " يفقهون" بإزاء " يعلمون" الثانية لما قامت مقامها من التماسك والترابط اللفظي، وما ذلك إلَّا لأنَّ اللفظ قد أحكم سبكُه وحسنُ نظمُه، وقل مثل ذلك في كلمة " فيه" في قوله تعالى:" أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون..." وما أحدثه الضمير في " فيه" الثانية من الإحالة على المعنى الأول في قوله تعالى:" لمسجد أسس على التقوى.." من ترابط المعاني واتساقها وتناميها في الآية، ثم ما أحدثه الترديد من تماسك اللفظ وتلاحمه ممَّا يؤكد أن مسائل البديع تحتاج أن تأخذ حظها من الدراسة النصية.

الثالث عشر: التعطف: فرق بين التعطف والعطف، فالعطف بحروف العطف المعروفة لدى النحويين، وهي من أنظمة الربط المعتمدة في البلاغة العربية، أمَّا

التعطفُ فهو من الميل والانعطاف، بمعنى أن تشاكل كلمةٌ أخرى لوقوعها في مجاورتها، ومن ثم ألحقوه بالمشاكلة كما قال ابن أبي الأصبع، غير أنَّ تعريف ابن أبي الأصبع ينحو به ناحية التكرار كما في الترديد، وذلك حيث يقول:" فهو كالترديد؛ في إعادة اللفظة بعينها في البيت، وأن الفرق بينهما بموضعهما وباختلاف التردد"(١).

ثم يلتبس عليه الأمر بين التصريع والتطعف، فيقول:" وثبتَ أن التعطفَ لا بدَّ وأن تكون إحدى كلمتيه في مصراع والأخرى في المصراع الآخر، ليشبه مصراعا البيت في انعطاف أحدهما على الآخر بالعِطْفين في كل عطفٍ منهما يميل إلى الجانب الذي يميل إليه الآخر.

ومن أمثلته قول زهير بسيط

من يلق يوما على علاته هرما ... يلق السماحة منه والندى خلقا

وكقول عقيل بن علفة طويل:

فتى كان مولاه يحل بفجوة ... فحل الموالي بعده بمسيل(٢).

ولا يخفى أن التصريع كما قال قدامة:" أن يُقصد لتصيير مقطع المصراع الأول في البيت الأول من القصيدة مثل قافيتها، فإنَّ الفحول المجيدين من الشعراء القدماء والمحدثين يتوخون ذلك ولا يكادون يعدلون عنه، وربما صرعوا أبياتاً أخر من القصيدة بعد البيت الأول، وذلك يكون من اقتدار الشاعر وسعة بحره... وإنما يذهب الشعراء المطبوعون المجيدون إلى ذلك، لان بنية الشعر إنما هو التسجيع والتقفية، فكلما كان الشعر أكثر اشتمالاً عليه كان أدخل له في باب الشعر وأخرج له عن مذهب النثر.

(١) التحرير والتحبير ص٢٥٧.

(٢) التحرير والتحبير ص٢٥٧.

وسيأتي الحديث عن التصريع ودوره في التماسك النصي، غير أنني أحببت أن أنبه إلى الفرق بين التطعف والتصريع، فالأول من المحسنات المعنوية التي يشاكل فيها المعنى المعنى، والثاني من المحسنات اللفظية المتصلة بنعوت القافية،على حد تقسم المتأخرين.

والذي يعنينا من هذا المصطلح هو أن مفهوم العطف في اللسانيات النصية يختلف عن البلاغة العربية؛ حيث اشرطتْ البلاغة العربية أن يكون بحروف العطف خاصة، أما هاليداي ورقية حسن – وهما من أشهر اللسانيين النصيين– فقد قسما الوصل إلى أربعة أقسام، وهي: **وصل** بالعطف، و**وصل بالعكس، ووصل عن طريق السبب، ووصل عن طريق الزمن،** والتعطف في الأبيات السابقة كان من الوصل السببي الذي يعتمد على المقدمات والنتائج والعلة والمعلوم، والسبب والمسبب والترتيب الوجودي؛ التلازم التركيبي، وبيان ذلك أن قول الشاعر:

من يلق يوما على علاته هرما ... يلق السماحة منه والندى خلقا

حيث كان ترابط البيت وتماسكه بواسطة ميل وانعطاف كلمة" يلقَ" الثانيةعلى " يلقَ" الأولى، وبيان ذلك أن لقاءَ " هرم" متصورٌ حقيقةً، ولقاء السماحة والندى خلقًا من الممدوح مشاكلة وانعطافًا للكلمة الأولى، وممَّا زاد من التماسك والترابط ما اشتمل عليه مصطلح التعطف من أسلوب الشرط الذي يعد من التلازم التركيبي.

الرابع عشر: التسهيم: نلمح في هذا المصطلح معنى النسج والإحكام والاتساق، فلدلالته المعجمية مزيد ارتباط بدلالته الاصطلاحية التي تعنى التناسب بين المعاني وحبكها وانسجامها؛ " فهو من الثوب المسهم، وهو الذي يدل أحد سهامه على الذي يليه، لكون لونه يقتضي أن يليه لون مخصوص له، بمجاورة اللون الذي قبله أو بعده... وهذا الباب عرفه من تقدمنى بأن قال: وأن يكون ما تقدم من الكلام دليلاً على ما يتلوه، ورأيت هذا التعريف وإن روعي فيه الاشتقاق لا يخص هذا الباب من البديع، بل يدخل معه غيره. والذي عندي أن هذا الباب من مشكلات هذا الفن،

ويصلح أن يعرف بقول القائل هو أن يتقدم من الكلام ما يدل على ما تأخر منه، أو يتأخر منه ما يدل على ما تقدم"[١].

والتسهيم من المفاهيم النصية التي تشبه مفهوم النسج و والإحكام والصياغة والتحبير والتعلق والضم والتأليف ومعرفة الوجوه والفروق بين الكلم، فكما أن النظم لا يقتصر على الترابط الشكلي بين الألفاظ، بل يمتدُّ ليشمل التماسك الدلالي بين معاني تلك الألفاظ، حتى ترى الجزء قائمًا بالكل، وترى الكل مستدعيًا ومكتنفًا للجزء في نسيج عجيب وفريد تتلاحم فيه الألفاظ بعضها مع بعض، فيتصل الأوَّل بالثاني والثاني بالأوَّل، ويبنى المُتقدِّم على المتأخِّر والمتاخِّر على المتقدِّم، فكذلك الحال مع التسهيم.

الخامس عشر: التصريع: يعد التصريع من أنظمة الربط العجيبة والفريدة التي لا تجدها إلا في اللغة العربية؛ لاعتماد اللغة العربية في أشعارها على الوزن والقافية، اللذان يقومان مقام الموسيقى في اللغات الأخرى، ولذا يعد تماسكًا زائدًا عما عرف عند البلاغيين والنصيين، حتى يلزم الشاعر نفسه بما لايلزم زيادة في الإحكام والترابط والتلاحم، " فتغير العروض في البيت لتصير موافقة للضرب في القافية والوزن والإعراب؛ وهو على ضربين: عروضي، وبديعي، فالعروضي: عبارة عن استواء عروض البيت وضربه في الوزن والإعراب والتقفية، بشرط أن تكون العروض قد غيرت عن أصلها لتلحق الضرب في زنته، والبديعي: استواء آخر جزء في الصدر، وآخر جزء في العجز في الوزن والإعراب والتقفيه، ولا يعتبر بعد ذلك أمر آخر، وهو في الأشعار كثير، لا سما في أول القصائد، وكثير ما يأتي في أثناء قصائد القدماء؛ ويندر مجيئة في أثناء قصائد المحدثين" [٢].

(١) التحرير والتحبير ص٢٦٣.

(٢) التحرير والتحبير ص٣٠٥.

السادس عشر:التطريز: المراد به تكرار المفردات والتراكيب، والتكرار والتعدد في التطريز مبنيان على الاتحاد لا على التغاير والمخالفة، ومن ثم فهو من عناصر التماسك النصي؛ حيث يلتزم المتكلم بذكر جمل مبهمه ثم يخبر عنها بصفة واحدة مكررة بحسب العدد الذي قدره في نفسه، فينتج عن ذلك نص محكم كالثوب المنسوج بخيوط دقيقة ومتحدة في اللون والعدد والحجم والغزل، ولذلك فهو: " أن يبتدئ المتكلم أو الشاعر بذكر جمل من الذات غير مفصلة، ثم يخبر عنها بصفة واحدة من الصفات مكررة بحسب العدد الذي قدره في تلك الجملة الأولى، فتكون الذوات في كل جملة متعددة تقديراً والجمل متعددة لفظاً والصفة الواحدة المخبر بها عن تلك الذوات متعددة لفظاً، وعدد الجمل التي وصفت بها الذوات لأعدد الذوات عدد تكرار واتحاد لا تعداد تغير، وذلك كقول ابن الرومي وافر:

أموركم بني خاقان عندي ... عجاب في عجاب في عجاب

قرون في رؤوس في وجوه ... صلاب في صلاب في صلاب [1]

فالجملة المبهمة هنا كلمة" أموركم بني خاقان عندي" والصفة المكررة تكرار اتحاد هنا كلمة" عجاب" وكذلك الحال في البيت الثاني؛ فالجملة المبهمة:" قرون في رؤوس في وجوه " والصفة المكررة قوله: صلاب في صلاب في صلاب.

والحق عندي أن هذا من التماسك المتكلف فيه، الذي يؤدي إلى ترهل النص بدلًا من إحكامه وترابطه، ولا عجيب في هذا فكما أن خلو النص من أدوات التماسك يؤدي إلى خلل في نظمه وتفكك بين أجزائه، فكذلك كثرة الروابط وتكلفها يؤدي إلى ترهلها وشناعتها؛ خاصة أن من المفترض أن المعاني هي التي تستدعي الروابط ، وليس العكس، كما أن خصية الربط يستدعيها النص ويرشحها، ولا تكون معيارية في ذهن المتكلم قبل إنتاج النص.

---

(١) التحرير والتحبير ص٣١٤.

السابع عشر: الاستدراك والرجوع: سواء أكان مصطلح" الاستدراك والرجوع هو ما عرف في علم النحو بالاستثناء[١]، أوما عرف في علم البلاغة بالقصر، أو ما عرف في علم النص بالوصل العكسي، فإن معنى التماسك ملازم له لا يفارقه، لكونه يتم من خلال أدوات العطف التي تفيد الاستدراك، وهو قال ابن أبي الإصبع على قسمين:" قسم يتقدم الاستدراكَ فيه تقريرٌ لما أخبر به المتكلمُ وتوكيدٌ. وقسم لا يتقدمه ذلك، فمن أمثلة الأول قول القائل وافر: هو ابن الرومي:

وإخوان تخذتهم دروعـــا ... فكانوها ولكن للأعـــادي

وخلتهم سهامـــاً صائبات ... فكانوهـا ولكن في فؤادي

وقالوا قد صفت منا قلوب ... لقد صدقوا ولكن من ودادي

ولم أسمع في هذا الباب أحسن من أبيات ابن الدويدة المغربي فيمن أودعت عنده وديعة فادعى ضياعها فقال فيه كامل:

إن قال قد ضاعت فيصدق أنها ... ضاعت ولكن منك يعني لو تعي

...هذه كلها شواهد القسم الأول من الاستدراك وأما شواهد القسم الثاني منه، وهو الذي لا يتقدم الاستدراك فيه تقرير ولا توكيد، فمثله قول زهير طويل:

أخو ثقة لا تهلك الخمر ماله ... ولكنه قد يهلك المال نائله[٢].

فمن المعلوم نحوًا وبلاغة أن الجملة الثانية وثيقة الصلة بالجملة الأولى، سواء أكانت علاقة المستثنى بالمستثنى منه تامة أو ناقصة أو حتى مفرغة؛ وإنما قلت ذلك؛ لأن الاستثناء المفرغ وإن لم يكن المستثنى من جنس المستثنى منه، فلا نعدم أن نرى فيه تماسكا لفظيًا عن طريق أداة الاستدراك.

---

(١) ذكر ابن أبي الإصبع مصطلحا آخر قريب الصلة بهذا المصطلح وهو مصطلح " الاستثناء" التحرير والتحبير ص٣٣٤.

(٢) التحرير والتحبير ص٣٣٢

والمتأمل لعناصر التماسك النصي عند المحدثين يلحظ أن أسلوب الاستدراك يأخذ أشكالا عدة، ولذا يعدون الاستدراك من أنظمة **الوصل العكسي:** الذي يكون ما بعده عكس ما تقدم، ولذا أدخلوا في الاستدراك قولنا:(إلّا أنَّ) (بالرغم من)(على عكس ذلك).

الثامن عشر: التلفيف: والتلفيف من اللَّف، وفي أبسط تعريف له : " هو أن يقصد المتكلم التعبير عن معنى خطر له أو سئل عنه، فيلف معه معنى آخر يلازم كلمة المعنى الذي سئل عنه، كقول الله تعالى مخبراً عن موسى عليه السلام وقد قال سبحانه له: " وما تلك بيمينك يا موسى، قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى " وكقول الرسول عليه السلام وقد سئل عن البحر في حديث أوله: إنا نركب البحر، فحواه السؤال عن ماء البحر هلا تجوز به الطهارة؟ فقال: هو الطهور ماؤه الحل ميتته(١).

ولا شك أننا نلحظ معنى التلازم الذي بني عليه المصطلح، فهناك تلازم بين العصا وما ذكر من فوائدها، وبين ماء البحر وما يحويه، ومن المعلوم أن التلازم هو جوهر التماسك النصي، ويقترب مصطلح التلفيف من مصطلح مراعاة النظير، في أن كلا منهما يسهم في حبك المعاني واتساقها وانسجامها.

التاسع عشر: المناسبة: من المعلوم أن جوهر الدراسة النصية هو إدراك ما بين النص من علاقات ولحمة سواء على مستوى الألفاظ أم على مستوى المعاني، بمعى أن تكون هناك مناسبة بين معاني المفردات، بحيث لا توجد لفظة نابية في سياقها قلقلة في موضعا، وكذلك الحال في تخير الألفاظ وسبكها وسهولة نطقها وعذوبتها، ومن هنا كانت المناسبة على ضربين: " مناسبة في المعاني، ومناسبة في الألفاظ، فالمعنوية أن يبتدئ المتكلم بمعنى ثم يتمم كلامه بما يناسبه معنى دون لفظ، وقد استشهد له ابن أبي الإصبع بقوله سبحانه وتعالى: " لا تدركه الأبصار وهو يدرك

(١) التحرير والتحبير ص٣٤٣.

الأبصار وهو اللطيف الخبير وعلق عليه قائلا: " فإنه سبحانه لما قدم نفي إدراك الأبصار له، عطف على ذلك قوله: " وهو اللطيف " خطاباً للسامع بما يفهم، إذ معترف العادة أن كل لطيف لا تدركه الأبصار ألا ترى أن حاسة البصر لا تدرك إلا اللون من كل متلون، والكون من كل متكون، فإدراكهما إنما هو للمركبات دون المفردات، ولذلك لما قال: " وهو يدرك الأبصار " عطف على ذلك قوله " الخبير " تخصيصاً لذاته سبحانه بصفات الكمال، لأن كل من أدرك شيئاً كان خبيراً بذلك الشيء" (١)

وإن كنت أرى أن ما ذكره ابن أبي الإصبع من اللف والنشر المرتب، وليس من المناسبة التي تعرف بمراعاة النظير، ولذلك نجده قد فرق بين المصطلحين، قائلا... ومن أمثلة المناسبة المعنوية في الشعر قول المتنبي طويل:

على سابح موج المنايا بنحره ... غداة كأن النبل في صدره وبل

فإن بين لفظة السباحة، ولفظة الموج، ولفظة الوبل تناسباً معنوياً صار البيت به متلاحماً شديد ملاءمة الألفاظ وأحسن منه قول ابن رشيق القيرواني طويل:

أصح وأقوى ما رويناه في الندى ... من الخبر المأثور منذ قديم

أحاديث ترويها السيول عن الحيا ... عن البحر عن جود الأمير تميم

وهذا أحسن شعر سمعته في المناسبة المعنوية، لأنه ناسب فيه بين الصحة والقوة، والرواية والخبر المأثور، والقدم مناسبة معنوية إذ هذه الألفاظ يناسب بعضها بعضاً، وكذلك ناسب في البيت الثاني بين الأحاديث والرواية والعنعنة مناسبة معنوية أيضاً، وأحسن من المناسبة الواقعة في البيت الأول ما وقع في البيت الثاني من صحة ترتيب العنعنة حيث أتى بها صاغراً عن كابر، وآخرا عن أول، كما يقع سند الأحاديث، لأن السيول فرع، والحيا أصله... وأما المناسبة اللفظية فهي توخي

(١) التحرير والتحبير ص٣٦٤.

الإتيان بكلمات متزنات، وهي على ضربين: تامة وغير تامة، فالتامة أن تكون الكلمات مع الاتزان مقفاة وأخرى ليست بمقفاة، فالتقفية غير لازمة للمناسبة. (١).

العشرون: التكرار: التكرار من المصطلحات التي عني بها النصيون، وجعلوه من عناصر التماسك اللفظي؛ ولذا فقسموا التكرار إلى: **التكرار التام، والتكرار الجزئي، وتكرار المعنى واللفظ مختلف:** ويشمل الترادف وشبه الترادف.

ونلحظ أن عناية علماء النص بالتكرار تتجه إلى ما تحدثه اللفظة المكررة من سبك وتلاحم لفظي، بينما اتجهت وجهة نظر البلاغيين إلى البحث في أغراضه البلاغية، ولذا عرفه ابن أبي الإصبع بقوله:" وهو أن يكرر المتكلم اللفظة الواحدة لتأكيد الوصف أو المدح أو الذم أو التهويل أو الوعيد(٢).

الحادي والعشرون: الموازنة: من عناصر التماسك النصي ما يعرف بالتوازي التركيبي، بمعنى أن تكون الفقرات متعادلة الكلمات سواء ارتبطت بالسجع والوزن أم لا، ويكثر ذلك في مقام الحقوق والمقابلات، ومن ذلك قوله تعالى: هن لباس لكم، أنتم لباس لهن" وقوله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع :" لكم عليهن.. ولهن عليكم.

فمن الملاحظ إستواء الفقرات وتوازيها، وأقرب المصطلحات البديعية علاقة بالتوازي التركيبي مصطلح الموازنة، وهو: أن تأتي الجملة من الكلام، أو البيت من الشعر متزن الكلمات، متعادل اللفظات في التسجيع والتجزئة معاً في الغالب، كقول امرئ القيس متقارب:

أفاد، وساد، وقاد، وزاد ... وشاد، وجاد، وزاد، وأفضل

(١) التحرير والتحبير ص٣٦٤- ٣٦٧.

(٢) التحرير والتحبير ص٣٧٥.

وكقول الآخر متقارب:

وهوب، مهيب، رحيب الفناء ... ربيع، مرئ، رفيع الذرا

والفرق بين الموازنة والمماثلة التزام التسجيع في الموازنة، وخلو المماثلة عنه (١).

الثاني والعشرون: حسن النسق: ومن المصطلحات البديعية الدالة على النظرة النصية في التراث النقدي والبلاغي- بالإضافة إلى ما سبق، ما ذكره ابن أبي الإصبع عن حسن النسق والاتِّساق والانسجام بين أجزاء العمل الأدبي- شعرًا ونثرًا، والمراد به:" حسن النسق من محاسن الكلام، وهو أن تأتى الكلمات من النثر والأبيات من الشعر متتاليات، متلاحمات تلاحمًا سليمًا مستحسنًا، لا معيباً مستهجناً، والمستحسن من ذلك أن يكون كل بيت إذا أفرد قام بنفسه، واستقل معناه بلفظه، وإن ردفه مجاوره صار بمنزلة البيت الواحد، بحيث يعتقد السامع أنهما إذا انفصلا تجزأ حسنهما، ونقص كمالهما، وتقسم معناهما، وهما ليسا كذلك، بل حالهما في كمال الحسن وتمام المعنى مع الانفراد والافتراق كحالهما مع الالتئام والاجتماع (٢).

ولا شك أن عبارة ابن أبي الإصبع " كل بيت معطوف على ما قبله بالواو عطف تلاحم من غير تضمين" (٣) تبرز لنا عنايتهم بالتلاحم والترابط القائمَين على مقصد المتكلمِ الحُرِّ؛ طواعية منه بعيدًا عن التماسك المتكلف الذي يقع فيه الأديب مضطرًا دون قصد، وكأن البلاغة العربية جعلت من مبدأ التماسك والترابط بين أجزاء العمل الأدبي هدفًا أسمى وغايةً عليا على الأديب أن يسعى إليها في شكلها المتكامل، فلا يجور لحساب اللفظ على المعنى، فيقع فريسةً للناحية الشكلية التي تؤدي إلى "وحدة البيت"، ولا يجور للمعنى على حساب اللفظ فيقع فريسة "للتضمين" الذي يخل بالقافية، وإنما عليه أن يوازن بين الترابط اللفظي والدلالي، ولعل هذا ماقصده ابن

---

(١) التحرير والتحبير ص٣٨٦.

(٢) التحرير والتحبير ص٤٢٧

(٣) تحرير التحبير ٣/٤٢٥.

أبي الإصبع بقوله: "كل بيت معطوف على ما قبله بالواو عطف تلاحم من غير تضمين[١].

ويدخل في ذلك القسم غير ذلك من مصطلحات كالتذييل القائم على أن يذيل المتكلم النص بجملة يتحقق فيها مضمون ما قبلها من الكلام، وكبراعة التخلص إذا أريد منها امتزاج آخر النص بأوله، وكتشابه الأطراف...إلخ

الثانية: أنظمة تعنى بالعلاقات الداخلية للنص، ومنها:

أولا: التعليل: من العلاقات الدلالية التي تؤدي إلى التماسك اللفظي، ما بين المعاني من علاقات تلازمية، ولذا تعد هذه العلاقات هي جوهر الدراسة النصية؛ نظرا لما تقوم به من حبك وإحكام وتساق وانسجام دلالي، ومن هذه العلاقات علاقة التعليل، بمعنى أن تكون بعض المعاني علة لغيرها، ومن ذلك قولنا:" أذاكر لأنجح، فالرابط هنا بين الجملتين هو أن الجملة الثانية علة للأولى، ومن ثم لا يقال: " أذاكر لأتنفس؛ لعدم وجود رابط معنوي بين المذاكرة والتنفس، ومن ثم يعد مصطلح "التعليل" من علاقات النص الدلالية، والمراد به: " وهو أن يريد المتكلم ذكر حكم واقع، أو متوقع فيقدم قبل ذكره علة وقوعه، لكون رتبة العلة أن تقدم على المعلول، كقوله سبحانه: " لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم " فسبق الكتاب من الله علة في النجاة من العذاب. وكقوله تعالى: " ولولا رهطك لرجمناك "، فوجود رهطه علة في سلامته من قومه، وكقول الرسول صلى الله عليه وسلم: " لولا أخاف أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة " فخوف المشقة على الأمة هو العلة في التخفيف عنهم من الأمر بالسواك عند كل صلاة " [٢].

(١) ينظر وحدة البيت بين البلاغة العربية واللسانيات النصية للباحث- مجلة قطاع كليات اللغة العربية- العدد التاسع عشر-مطبعة دار الإيمان- ص١٠٣١

(٢) التحرير والتحبير ص٣٠٩.

ويدخل في هذه العلاقات علاقة الجزء بالكل، وعلاقة السبب بالمسبب، وعلاقة الترتيب الوجودي؛ كالأصل والفرع، وعلاقة الخاص بالعام، وعلاقة المطلق بالمقيد، ومن أكثر المصلحات التي تعنى بهذا الدلالي مصطلح المذهب الكلامي وما يشتمل عليه من مقدمات ونتائج، ومصطلح البيان بعد الإبهام(التفسير والتبيين) ومصطلح التقسيم والتضاد. وكلها محسنات بديعية لم توظف في المعالجة النصية.

الثالثة: أنظمة تعنى بالعلاقات الخارجية للنص، ومنها:

أولًا: التضمين:

والمراد بالعلاقات الخارجية للنص: علاقة النص بغيره، أو العوامل المؤثرة في النص، وهو ما سبقت الإشارة إليه في الحديث عن معايير النصية، وهو " التناص" حتى قيل : كل نصٍّ متناصٍ؛ أي كل نصٍ متأثرٌ بغيره، وأشبه المصطلحات البديعية بالتناص، هما مصطلحا" التضمين" و" الإيداع" والمراد بالتضمين " وهو أن يضمن المتكلم كلامه كلمة من بيت، أو من آية، أو معنى مجردًا من كلام، أو مثلًا سائرًا أو جملة مفيدة، أو فقرة من حكمة كقول علي عليه السلام في جواب كتاب لمعاوية: " وما الطلقاء وأبناء الطلقاء، والتمييز بين المهاجرين الأولين وتبيين درجاتهم، وتعريف طبقاتهم، هيهات لقد حن قدح ليس منها، وطفق يحكم فيها من عليه الحكم لها " فضمن كلامه هذا المثل العربي وهو قوله: " لقد حن قدح ليس منها " وكقوله في آخر هذا الكتاب: وإني مرقل نحوك بجحفل من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، شديد زحامهم، ساطع قتامهم متسربلين سرابيل الموت، أحب اللقاء إليهم لقاء ربهم، قد صحبتهم ذرية بدرية"[1].

ومن الأسس الفنية التي أقرها البلاغيون عند إنتاج النص أوتحليله مفهوم (المطابقة) و(العناصر الخارجية) و(خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر)، وكلها

(١) التحرير والتحبير ص١٤٠

اعتبارات خارجة عن النص إلى زمان النصّ ومكانه وعلاقة المتكلم بالمخاطب وطبيعة العصر وثقافته وظروفه السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وغير ذلك مما سَمَّتْهُ اللسانيات النصيَّة بالعلاقات الخارجية للنصّ، وهو ما أشار إليه البلاغيون بمفهوم (المطابقة)؛ ولذا جرتْ عادتُهم قبل أن يوردوا النصَّ أن يذكروا مقدمةً عن الملابسات التي أحاطت به، وهو ما عُرف بمناسبة القصيدة في الشعر، أو الرواية في النثر، أو أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ والعام والخاص، والمطلق والمقيد في النظم القرآني، وشأن هذه المقدمات أن تكشف غموضًا أو توضح مبهمًا أو تفصل مجمَلاً أو تنبه غافلاً أو تقنع قارئًا؛ لأنَّه إذا اقتنع كانت منه عنايةٌ واهتمامٌ ببناء النصّ[1].

ويدخل في تلك العلاقات الخارجية للنص التي لابد للمتلقي أن يكون على وعي بها مصطلح تجاهل العارف، والأسلوب الحكيم، والاستخدام، والتورية، والطاعة والعصيان، والاشتراك، ونفي الشيء بإيجابه، والإيداع، والاستعانة، والتهذيب والتأديب، ولولا خشية الإطالة لفصلت القول فيها.

****

(١) وحدة البيت بين البلاغة العربية واللسانيات النصية – ص١٠٢١.

مصطلحات تضعف النصية، ومنها:

كما أنَّ هناك مصطلحات بديعية تسهم في إنتاج النصِّ وبنائه، وتهدف إلى تحقيق مقصده من خلال إبراز المعنى الكليِّ الذي تضمنه؛ لما تقوم به من سبك لفظي وحبك دلالي، أقول: على الرُّغْم من ذلك هناك بعض المصطلحات البديعية التي تعوق إيصال هذه الرسالة التي تضمنها النصُّ، وتعمل على عدم تحقق مقصوده، لما تشتمل عليه هذه المصطلحات من تعميةٍ وإلغازٍ على المتلقي، وإخفاءٍ متعمدٍ لمقصد النص، ومن هذه المصطلحات:

أولا: التورية:

قد لا تقتضي الحاجة لجوء المتكلم إلى المواراة، ومن ثم فلا داعي له أن يسلك هذا المسلك من التعبير؛ لما فيه من التعمية والإلغاز، الذي يتعارض مع المقصدية التي هي من معايير النصية، وقد يقال: إنَّ أكثر النصوص حمالةٌ لوجوه متعددة هي نصوص القرآن الكريم، ولم يقل أحد من العلماء بأن تعدد الوجوه يؤدي إلى الذهاب بمقصد النصوص، والجواب على ذلك من وجهين:

الأول: فرق بين تعدد المعاني الناتج عن بلاغة النظم وحسن التأليف، بحيث تذهب النفس فيه كل مذهب، ولا يُتوصل إلى المقصود منه إلا بعد فكرٍ ورويَّةٍ، وبين تعدد ناتج عن التعمية والإلغاز.

الثاني: لم يقل أحد من علماء البلاغة بالتسوية بين المفسر البلاغي الذي يعدد الآراء دون ذكر ما يتناسب مع المقام والسياق، وباحث البلاغة الذي يختار من الآراء ما يتناسب مع المحتوى الكلي للنص.

وإنما عيبت التورية لأنها تحول دون فهم الرسالة التي يتضمنها النص، ويعمل المتكلم من خلالهما على الإلغاز والتعمية، والمراد بالتورية:" أن تكون الكلمة تحتمل

معنيين، فيستعمل المتكلم أحد احتماليها ويهمل الآخر، ومــراده مــا أهملــه لا مــا استعمله[1].

ثانيا: الطاعة والعصيان:

من المصطلحات التي تضعف النصية(الطاعة والعصيان) حيث تكون المعاني تابعــة للألفاظ، وهذا مخالف لنظرية النظم عند عبد القاهر الذي لا يرى مزيةً للفظ بمفــرده ما لم تستدعه المعاني" وهذا النوع استنبطه أبو العلاء المعري وفسره بقوله: وهو أن يريد المتكلم معنى من معاني البديع، فيستعصي عليه لتعذر دخوله في الوزن الــذي هو آخذ فيه، فيأتي موضعه بكلام غيره يتضمن معنى كلامه، ويقــوم بــه وزنــه، ويحصل به معنى من البديع غير المعنى الذي قصده، كهــذا البيــت الــذي ذكرتــه للمتنبي، فإنه أراد أن يكون في البيت مطابقة، فاحتاج لأجلها أن يقول:

يرد يدا عن ثوبها وهو مستيقظ

حتى إذا قال:

ويعصي الهوى في طيفها وهو راقد

فأراد أن يكون في البيت مطابقة فلم يطعه الوزن، فأتى بقادر مكان مستيقظ؛ لتضمنه معناه وزيادة ، فإن القادر لا يكون إلا مستيقظاً، فقد عــصاه فــي البيــت الطبــاق، وأطاعه الجناس، لأن بين قادر وراقد تجنيس عكس. هذا كلام المعري علــى هــذا البيت، وهذا المعنى من البديع[2] ولم يأت بشاهد غيره، وتبعه الناس بعد، فأثبتوا هذا الباب وتكلموا فيه بمثل هذا الكلام، واستشهدوا بهذا البيت، ولم يأت أحد منهم بغيره، وأضربوا جميعهم عن النظر فيه، إما لحسن ظنهم بالمعري وموضــعه مــن الأدب،

(١) التحرير والتحبير ص٢٦٨.

(٢) التحرير والتحبير ص٢٩٠.

واعتقادهم فيه العصمة من الخطإ والسهو فيه، وإما أن يكونوا قد مر عليهم ما مر عليه في هذا البيت "[1].

ثالثا: الإيهام:

من المعلوم أنَّ الإيهام يضعف النصيَّة ويذهبُ بالرسالة التي يقصدها النصُّ كما يضعف الإعلامية، ولو وضع (الإيهام) بجوار مصطلح (البيان والتفسير) لظهر الفارف بينها، والمراد بالإيهام: " أن يقول المتكلم كلاما يحتمل معنيين متضادين، لا يتميز أحدهما على الآخر، ولا يأتي في كلامه بما يحصل به التمييز فيما بعد ذلك، بل يقصد إبهام الأمر فيهما قصداً، والفرق بينه وبين الاشتراك المعيب أن الاشتراك لا يقع إلا في لفظة مفردة لها مفهومان، لا يعلم أيهما أراد المتكلم، والإبهام لا يكون إلا في الجمل المركبة المفيدة، ويختص بالفنون كالمديح، والهجاء، وغيرهما، ولا كذلك الاشتراك، والفرق بينه وبين الإيضاح أن البيت الملتبس الذي يفتقر إلى الإيضاح يتضمن ألفاظ المديح الصريح والهجاء البين فيكون فيه مدح وهجاء، والإبهام لا يفهم من ألفاظه مدح ولا هجاء البتة، بل يكون لفظه صالحاً للأمرين، وإن لم يكن فيه من لفظ المدح والهجاء شيء" [2].

ويدخل في هذه المصطلحات (الهزل الذي يراد به الجد- والمبالغة والإفراط، والتوجيه ؛ لأنها مصطلحات تحول دون فهم الرسالة المرادة من النص وهو معيار(المقصدية) اللهم إلَّا إذا أُريد من هذه المصطلحات مجرد الإمتاع دون الإقناع، أو كانت هناك اعتبارات مناسبة وأغراض بلاغية وراء هذا العدول.

---

(١) التحرير والتحبير ص٢٩١.، وقد علق ابن أبي الإصبع على هذا البيت بأنه ليس من الطاعة والعصيان، وأيا ما كان الأمر فإن الذي يهمنا هو دلالة هذا المصطلح التي تتعارض مع التماسك النصي، طبقا لنظرية النظم، التي توجب المزية والحسن في ترتب الأفاظ في الذكر تبعا لترتب المعاني في الذهن.

(٢) التحرير والتحبير ص٥٩٦.

وبعد...

فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد- صلى الله عليه وسلم- وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

****

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آلـــه، وصـــحبه، وإخوانه من الرسل.

وبعد...

فأستميحُ القارئ عذرًا إنْ لم تلبِ هذه الدراسةُ طموحَه، ولم تفِ بحاجته، فليس مـــن اجتهد وأصاب كمن اجتهد وأخطا، فالأول: لـــه أجـــران؛ أجـــر الاجتهـــاد، وأجـــر الإصابة، والثاني: له أجر الاجتهاد على الرغم من خطئه.

ونحن بين كلام المتقدمين والمتأخرين مأمرون ألا نذهب إلى الله وفي عقولنا ما كان أحرى أن نودعه عقول أبنائنا أو نفرغه مكتوبا بين يدي طلابنـــا، وألا نلقـــى الله إلا وقد أفرغنا جميع ما منحنا الله به من طاقات وقدرات حتى ولو كانت هي اللحظـــات الأخيرة في أعمارنا عملا بحديث النبي –صلى الله عليه وسلم– إن قامـــت الـــساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها، فليغرسها"[1]

ولما كان البحث عن آفاق جديدة للبلاغة العربية مطلبا ملحا وضروريا، خاصة فـــي وقتنا الحاضر الذي زاحمت فيه بعض المصطلحات الغربية البلاغة العربية؛ اتجهت عناية تلك الدراسة المتواضعة إلى ربط مسائل البديع بالنص، لما هو معلوم مـــن أن النصوص هي الموجة للنشاط الإنساني، والمسئولة عن إحداث تغيير فـــي الـــسلوك البشري، فمن خلالها نتكلم ونفكر ونعبر عن هواجس النفس وطموحاتهـــا وآمالهـــا وأفراحها وأتراحها.

---

(١) رواه الإمام أحمد (١٢٩٠٢) ، والبخاري في "الأدب المفرد" (٤٧٩) ، وعبد بن حميـــد فـــي "مسنده" (١٢١٦) ، والبزار في "مسنده" (٧٤٠٨) والحديث بنصه " عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَـــالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنِ اسْـــتَطَاعَ أَنْ لَا تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا).

وحتى ننتج بلاغة حية متجددة يتقبلها القارئ ويتفاعل معها، وتتفق مع ميوله اتجاهاته، وتلبي معانيه وأغراضه، كان ولابد من ربط البلاغة بالنص وإبراز أوجه تفاعله، والغوص في المحتوى الكلي، بعيدا عن بلاغة تسعى إلى استيفاء المكونات البلاغية وصحة الإسناد فحسب... وإذا كان لي من كلمة أقولها فإن معالجتي لهذا الموضوع قد أسفرت عن النتائج الآتية:

١- أنَّ التجديد في البلاغة العربية ليس في زيادة مباحثها ومسائلها، وإنما في إعادة توظيفها وتصنيفها وربطها بالنص، بما يضمن لها تفاعلها مع قضايا مجتمعها.

٢- أنَّ سبب تعالى الصيحات المنادية بزحزحة البلاغة العربية وإحلال الأسلوبية والتداولية وعلم النص ناتج عن انقطاع معرفي بالتراث البلاغي، وانعدام الثقة في العقلية العربية.

٣- أن عوامل التجديد والنهوض ليس من الضروري أن تكون متلازمة مع كل حديث وافد، فقد يكون التجديد من فهم القديم ومحاورته واستخلاص معارفه التي نبني عليها، وأدواته التي يكون بها البناء، فالآفاق الجديدة التي نادى بها المحدثون، التي أصبحت مطلبًا ملحًا وضروريًّا، موجودة لدى القدماء، ولكنها تحتاج إلى جهود لاستخراجها.

٤- أن أهم ما يميز المصطلحات البديعية أنها تهتم بإدراك العلاقات الداخلية والخارجية للنص، فإدراك العلاقات وملابسات العمل الأدبي هي جوهر علم البديع، سواء على مستوى الناحية الصوتية كالتجنيس، والسجع، والتصريع، وائتلاف اللفظ مع المعنى والوزن والقافية، أو على مستوى البنية المعجمية كمراعاة النظير... وهو ما يعرف بالسبك أو على مستوى العلاقات الداخلية كا...وهو ما يعرف بالحبك أو على مستوى العلاقات الخارجية، وإن شئت

فقل: إن جل مسائل البديع هي أنظمة ربط وتماسك وإحكام، سواء ما تعلق منها بالمحسنات اللفظية أو المعنوية.

٥- لا يختلف مفهوم الترابط في المعاجم العربية عن التماسك النصي في المعاجم الغربية، وإنما وجه الاختلاف في أنظمة الربط لدى الفريقين؛ فبينما وسعت الدراسة النصية من تلك الأنظمة ونصت عليها صراحة، قصرت البلاغة العربية ذلك على مبحثي الفصل والوصل.

٦- عماد الدرس البديعي هو ضرورة التوافق والاتساق والانسجام بين اللفظ والمعنى، دون التفرقة بينهما؛ تحقيقا للتماسك النصيّ، وهو ما قرره عبد القاهر، هو يعالج قضية التجنيس والسجع، واللفظ والمعنى، نافيا أن تكون هناك مزية تعود على اللفظ بمفرده أو المعنى بمفرده.

٧- الانتقال بدراسة البديع من الوظيفة التحسينية إلى رحاب النص يخرجه من بلاغة الجملة إلى بلاغة النص، ومن النظرة الجزئية إلى رحاب النظرة الكلية.

٨- توظيف مسائل البديع بصورة تكشف دوره في التماسك النصي، ويمكن الانطلاق منها إلى وضع معجم للمصطلحات البلاغية النصية،على النحو التالي:

- مصطلحات قائمة على إحداث التماسك النصي عن طريق الائتلاف والتناسب بين اللفظ والمعنى.
- مصطلحات قائمة على إحداث التماسك النصي من خلال إدراك العلاقات الداخلية بين النص.
- مصطلحات قائمة على إحداث التماسك النصي من خلال إدراك العلاقات الخارجية للنص.

وآخر دعوانا أن الحمد الله رب العالمين، عدد خلقه ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واستن بسنته.

المصادر والمراجع

- الاتساق النصي في التراث العربي" تأليف أ. نعيمة سعدية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة محمد خضير– بسكرة– الجزائر– مجلة كلية الآداب – العدد الخامس– ٢٠٠٩.
- الأزهر الزناد– نسيج النص– ط–المركز الثقافي العربي– بيروت،١٩٩٣م.
- البديع لابن المعتز– تعليق / إغناطيوس كراتشقوفسيكى – دار المسيرة ـــ الطبعة الثانية.
- بلاغة الخطاب وعلم النص– تأليف: صلاح فضل– الناشر: عالم المعرفة– المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب– الكويت– ١٩٩٢.
- البيان العربي" دراسة في تطور الفكرة العربية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى" دكتور/ بدوي طبانة– الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية– الطبعة السادسة.
- تأويل مشكل القرآن المؤلف: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ) المحقق: إبراهيم شمس الدين الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.
- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن– المؤلف: عبد العظيم بن الواحد بن ظافر ابن أبي الإصبع العدواني، البغدادي ثم المصري (المتوفى: ٦٥٤هـ)– تحقيق: الدكتور حفني محمد شرف– الناشر: الجمهورية العربية المتحدة – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي.

- التماسك النصي بين التراث والغرب- تارا فرهاد شاكر- كلية اللغات / جامعة صلاح الدين/أربيل – مجلة جامعة بابل- المجلد ٢٢- العدد ٦- ٢٠١٤. شبكة التواصل – تاريخ الدخول- ٢٠١٦/٨/١٧.
- دلائل الإعجاز في علم المعاني- المؤلف: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى: ٤٧١هـ) المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
- السبك في العربية المعاصرة بين المنطوق والمتكوب-تأليف/ محمد سالم أبو عفرة- مكتبة الآدب- القاهرة- الطبعة الأولى- ١٤٣١هـ٢٠١٠م.
- سوق المعلوم مساق غيره بين علمي المعاني والبيان رؤية بلاغية" للباحث- مجلة قطاع اللغة العربية- جامعة الأزهر- العدد - ٢٠١٠.
- شرح ديوان الحماسة – تأليف أبي علي المرزوقي- تحقيق غريد الشيخ- الجزء الأول.
- الشعر والشعراء المؤلف: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ) الناشر: دار الحديث، القاهرة عام النشر: ١٤٢٣ هـ .
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه المؤلف: أبو على الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (المتوفى: ٤٦٣ هـ) المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد الناشر: دار الجيل الطبعة: الخامسة، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.
- عناصر التماسك النصي بين نظرية النظم وعلم النص للباحث- مجلة كلية البنات الأزهرية بالعاشر من رمضان- العدد الأول ٢٠١٦.
- الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان لابن القيم الجوزية المتوفى ٧٥١هـ ـ مكتبة المتنبى.

- قواعد الشعر المؤلف: أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار الشيباني بالولاء، أبو العباس، المعروف بثعلب (المتوفى: ٢٩١هـ) المحقق: رمضان عبد التواب الناشر: مكتبة الخانجي – القاهرة الطبعة: الثانية، ١٩٩٥م.
- كتاب الصناعتين – المؤلف: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ) المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت عام النشر: ١٤١٩ ه.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ) الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ.
- لسان العرب– تأليف: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ) الناشر: دار صادر – بيروت الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ.
- المطول في شرح تلخيص المفتاح لسعد الدين مسعود التفتازاني الهروي– المكتبة الأزهرية للتراث– القاهرة.
- المعنى بين الأدب والبلاغة. تأليف: دكتور: محمد بركات حمدي– دار النشر– عمان– الأردن–١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .
- مفتاح تلخيص المفتاح للعلامة شمس الدين محمد بن مظهر الخطيب الخلخالي المتوفي ٧٤هـ– تحقيق/ هاشم محمد هاشم– المكتبة الأزهرية للتراث– مصر– الطبعة الأول– ٢٠٠٧.

- المنثور في القواعد الفقهية المؤلف: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: ٧٩٤هـ) الناشر: وزارة الأوقاف الكويتية الطبعة: الثانية، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء المؤلف: حازم بن محمد بن حسن، ابن حازم القرطاجني (المتوفى: ٦٨٤هـ) بدون تحقيق.
- نحو لسانيات نصية عربية" للدكتور/ رشيد عمران – شبكة التواصل الاجتماعي- تاريخ الدخول ٢٠١٦/٨/٢٦.
- نظرية النظم وأثرها في اللسانيات الحديثة للباحث- مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات بني سويف٠ العدد الخامس.
- وحدة البيت بين البلاغة العربية واللسانيات النصية للباحث- مجلة قطاع اللغة العربية- العدد الثالث عشر- ٢٠١٩.